



خسوف

ياسين الغماري

خديعة الخديعة

I



ياسين الغماري

ياسين الغماري-روائي تونسي
من مواليد سوسة 22 فبراير،
مُتَحَصِّل على بكالوريا علوم
تجريبية، وعلى الاجازة الأساسية
بالمالية بالفرنسية 2016-2019،
وعلى ماجستير في التحليل المالي
بالانجليزية سنة 2021، يتركز
اهتمامه على الاقتصاد والتنمية
المستدامة وهو موضوع بحثه في
رسالة الماجستير وسيرته الروائية
زمن التعب المزمن صدر له: زمن
التعب المزمن، سيرة روائية،
الساعاتي، "صانع الزمن"، رواية.



خدیعة الخدیعة

الكتاب: خديعة الخديعة (خسوف)
المؤلف: ياسين الغماري
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- بلوفديف- بلغاريا
Фирма Бадер



دارالدرّاويش للنّشر والتّرجمة
DAR AL DARAWISH FOR PUBLISHING & TRANSLATION

العدد: ١٣٦٠

الطبعة الأولى أبريل ٢٠٢٤

١٢٩ ص: ٢١ × ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنّما تُعبّر بالضرورة عن آراء
ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة الوطنية صوفيا بلغاريا : ٢٠٢٤



(ISBN) (ردمك) الورقي

لوحة وتصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.
الصّفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السويطي

للتواصل: 

الدّراويش للنّشر والتّرجمة 

daralDarawesh@gmail.com

هاتف: 00491627040179 ص.ب: 87600 

شارع تورغوفسكا رقم ٧- ستامبوليسكي- بلوفديف- جمهورية بلغاريا. 

© كافة حقوق النّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتّقديم والبحث والاقتباس
العادية ذكرًا للمصدر؛ فإنّه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقيًا أو إلكترونيًا- أي
جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت
تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التّسجيل الفوتوغرافي أو التّسجيل على أشرطة أو أقراص
مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من النّاشر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرّض صاحبه للمسائلة القانونية.
*تباع النّسخة إلكترونيًا عبر موقع الدّار.

خديفة الخديعة

ياسين الغماري



الدراويش للنشر والترجمة®

AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
WWW.DARAWESH.COM

بلوفديف - جمهورية بلغاريا

Plovdiv-Bulgaria

2024

هذه الرواية هي محض خيال، أي تشابه في الواقع، فهو محض
صدفة ولكن الأحداث التي تدور بالمدرسة حقيقية، عشتها أنا
شخصياً.

أهدي الرواية إلى زملاء دراستي الذين أصبحوا الآن نساءً
ورجالاً

أغلب الناس عند السُّلطة يصيرون أشرارًا.
أفلاطون
أكبر شرّ عدا الظلم هو أن لا يدفع الظالم ثمن ظلم
أفلاطون

قلوبهم معنا وقنابلهم علينا
أحلام مستغانمي

كانوا يتوارثون الخوف أباً عن جد، كان الخوف يبدأ بولادتهم
ولا ينتهي إلا مع موتهم، ولذلك كانوا يُطلقون على هذا الخوف
إسم الحياة

نيكوس كازانتزاكيس

(1)

يوم الخميس لم تشهد «رنين» تعباً من قبل، بكمّ ما تحسّسه الآن عندما تعذّر عليها الحصول على ما تصبو إليه. غطّست قطع البطاطس المشروخة في المقلاة فوق الموقد. وقد كانت حانية الظهر وساهية العينين. بدت المقلاة لها أضيق ممّا كانت تعتقد. حرّكت الملعقة الخشبيّة بتوّدة. في زاوية الحوض اليسرى تكدّست -مُنذُ مساء أمس- كومة من الأطباق والملاعق، من سلّة يطفح منها الأكل الفاسد. تشعر بغثيان مُتّسخ. ستسقط على الأرض مثل زخّات المطر. وهذا خلاصة العمل الممتد -بالبيت- مُنذُ سنوات. ويتعيّن عليها -في أغلب الأوقات- أن تفعل ذلك. وبينما كانت تُزيل قطع البطاطس المُفلطحة من المقلاة، ترمى إلى مسامعها نداء رجل يتلمّس المساعدة. يطرق الباب بشدّة. ولدى بلوغها غرفة الضيوف رفعت القليل من الستائر. جالت ببصرها على زوايا الباب. كانت الشمس عاكسة خيوطها. رأت رجلاً في مُقبل الثلاثينات من عمره. يتّشح بالوقار والنبل. يتسرّبل بطقم أزرق ومعطف أسود طويل. حسبت للوهلة الأولى أنّه

ضائع. كدأب الغرباء. تحرّكت لتفتح له الباب. لكنّها مكثت هُنيئاتٍ شاردة في أمرها. لا يجب لنساء القرى أن يفتحن الباب للغرباء. لا تعرف ماذا تفعل. اتّخذت قراراً بشأن هذا. عندما فتحت نصف الباب أدركت بُرودة الجو. الفُتحة بالكاد واسعة بما يكفي لتمرير شخص بالغ.

نظرت خلصة ثمّ قالت برفقٍ:

«بماذا أخدمك؟»

لم تُبعد نظرها عنه. تمتّ أن يرمّقها بنظراتٍ مُماثلة. وحدها شفّته تُسقطان العاقل في فوهة الجنون. حدّقت فيه كما لو أنّها لم تر رجلاً - بقدرٍ أكبر من الجمال - من قبل. كان قلبها يشكُّ في أنّه لن يكون جزءاً منها.

نظر إليها الغريب باقتضاب وتفاخر:

أردف بسُخرية بريئة من الإستهزاء. «زارتنا البركة»

أصبحت بلون الفجل الأحمر. ارتبكت كأنّ مفاصل جسدها قد تصلّبت. وكان بمُستطاعها أن تقول: «تقبّل أسفي. نساء القرية لا يتحدّثن إلى الغرباء» طفقت تُلوّح بيدها من هنا إلى

هناك. ضحك الرجل بطاقة أكبر من طرق الباب: «هل أبدو غريباً مُخيفاً بالنسبة لك؟» تساءل بلهجة مُفعمة بالكياسة. التفّ حول نفسه وكان ساطع اللّمعان. تبدّت ابتسامة حماسيّة على شفّتيه. ثمّ استرسل مُعرباً أنّ سيّارته قد تعطلّت. طرق على أبواب البُيوت السّابقة ولم يكن ثمة من يتكرّم بفتح الباب. ثمة من أبى أن يمدّ له يد العون. أوضح لها-بينما كان يزدرد ريقه-أنّ التعب قد نال منه. كما أنّه ظمّآن. سدّدت بصرها إلى الأسفل، واجهةً. لم تجد في جعبتها كلمات. كأنّ القزم الشرّير أكل لسانها.

«أعتذر على الإزعاج. سأطرق باباً آخر»

تحوّل بصره عنها واستدار إلى الجانب الآخر مُنصاعاً. يمشي أبعد فأبعد بحركاتٍ موزونة. لبثت مُتخسّبة في مكانها. قابضة بمقبض الباب على ذلك الشكل المُخيّب. ولم يعد في مجال البصر. والدتها تسأل من الطّارق؟ تلمّست خُطواتها-مُتهادية-نحوها. وضعت يديها على خصرها وأردفت في ضيق: «ما الأمر؟» ردّدت والدتها بصرها إليها قلقة الظنّ وكانت فوق ماكينة الخياطة. سألتها ثانية-بكلمات مُتهدّجة ورخوة-عن هويّة الطّارق.

«لا شيء ذي بال»

«ألم أُنذرك من فتح الباب للغرباء؟»
 تُحيدُ بنظرها عنها. «ومن آخر لديه دراية غيرك؟»
 «سأفقدُ صوابي منك»

تحسّست رائحة شيء يحترق. كانت قطع البطاطس التي
 تتقلّى على النار. أطفئت - على جُناح السرعة - الموقد. رمت
 المقلاة بأكملها في قاع القمامة. كانت تُغمغم - بأُمور شتّى - في
 حيرة من أمرها، وقد بدا عليها العياء. عقب هُنيئاتٍ من الزمن
 قفل والدها سي «محمود» راجعًا إلى البيت رفقة ضيف. ليس
 من شأنه - بقدرِ ثُمائل من الواقعية - أن يُدخل الغرباء. كان نفس
 الرجل الذي مرّ للتوّ. مُطأطئ الرأس كتوم. حيّاها بصوتٍ
 منخفض. وتنفس بعُمق.

«رحّبي بضيفنا «وزير»»

سيمكثُ هنا - بعض الساعات - إلى أن تكون سيّارته جاهزة.
 وقبل انصرافه إلى الحتمّ طرح سي «محمود» نفس السؤال في
 دهشة: هذا المودال من الصّعب أن يتعطّل؟ وفي المطبخ دسّ «
 وزير» قطعة فوشار في فمه على نحوٍ مُباغت. ناولته كعكًا منزليًا

مكسّواً بطبقة كثيفة من الفراولة. «خُذْ لَقْدَ عُدٍّ مِنْ يَدِي»، مَدَّتْ يَدَهَا بِالصَّحْنِ. «هَذَا كَرَمٌ مِنْكَ» قَالَ بِصَوْتٍ يَقْصِدُ بِهِ الْهَمْسَ. مُقَرَّباً وَجْهَهُ مِنْهَا بِاحْتِرَاسٍ وَتَجَبُّبٍ. كُلُّ مَا فِي وَقْفَتِهِ ثَابِتٌ. لَا يَنْبِي عَنْ لِمَسٍ عَقْدَةٍ عُنْقَهُ وَحِزَامٍ بِنِطَالِهِ.

أَحْنَى رَأْسَهُ لِيَرُشِفَ اللَّيْمُونَاضَةَ. «أَفْعَلَا لَمْ أَزَعْجَكِ؟»

قَالَتْ مُدَقِّقَةَ النَّظَرِ. «كَلَّا. دُونَ حَرْجٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ»

طِفْفاً يَتَحَدَّثَانِ حَوْلَ مَوَاضِيْعٍ أُخْرَى غَيْرِ الْمُنَاحِ وَتَحَوُّلَاتِهِ. عَرَفَتْ أَنَّهُ يَعْمَلُ بِشَرَكَةِ الْكَهْرِبَاءِ وَالْغَازِ وَيَمْلِكُ فُنْدَقاً صَغِيراً. يَنْكَشِفُ الْجَانِبَ الْغَامِضَ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ فِي حِضْمِ مُرَاوِغَاتِهِ. حَمَلَقَ مِنْ خِلَالِ الشَّبَابِ-بِالْأَشْجَارِ الَّتِي كَانَتْ تَهْتَزُّ بِالْهَوَاءِ-فِي الْحَدِيقَةِ. كُلُّ مَا كَانَ يَشْغَلُ بِهَا أَنَّ الْأَرْضِيَّةَ أَصْبَحَتْ طَافِحَةً فِي الْفُتَاتِ. نَاهِيكَ عَنْ أَعْقَابِ قَطْعِ السَّبَاجِيْتِي تَحْتَ الْمَنْضِدَةِ.

بَاغْتَهَا بِالسُّؤَالِ. «مَا سَنِّكَ؟»

«وَمَا شَأْنُكَ؟»

«الْأَطْفَالُ وَحَدَهُمْ لَا يَفْتَحُونَ الْبَابَ لِلْغُرْبَاءِ»

«أَبْلُغُ مِنَ الْعَمْرِ وَاحِداً وَعَشْرِينَ عَامًا»

«كبيرة بما يكفي للتحدّث مع الغرباء»

أفهمته- بإسراف- أنّ الريف يختلف شكلاً ومضموناً عن المدينة. هزّت رأسها بقوة. تشرح بالقدر الممكن من التلميحات. إذا اتّجهت سيّارته بتتابع معكوس- وبشكلٍ حلزوني- عن مسارها. وانجرفت إلى غابة كثيفة الأشجار. فاعترضت طريقه امرأة بالغة الجمال. سوف تستدرجه بجملها إلى وكرها. بطبيعة الحال، يُطعّم الرّجال المرأة السّاحرة. وبعد هُنيئاتٍ يُلاقي حتفه. ضحك بمُنتهى البَلَه. بالكاد استطاع تحمّل بقيّة الكعكة دون تأثّة. «ومن تكون هذه المرأة»

كخفافيش تدافعت كلماتها من تلقائها. أطلّعه على أمرٍ ما أنّ هذه المرأة معنونة بـ«عيشة قنديشة» وهي ساحرة عبّوز داهية تصرف وقتها في حبّك المكائد لتفريق الأزواج. قدميها مثل حوافر البغال. خلّصت بالقول أنّ الطريقة المثلى للخلاص منها هو كبّح جمّاح أهواءه ومُباغتتها باللهب. لا شيء أكثر. وقالت بنبرة لا تخلو من الإثارة أنّ الرّضع مرصودون- في آخر الليل- إلى امتصاص أدمغتهم من «أم الصبيان». الأطفال مدعاة- وقت الظهيرة- للخطف من «بو شكارة». وهو غنيّ عن

التعريف. كانت اللائحة طويلة. الجميع هنا مرصود بطريقة أو أخرى. استخفّ «وزير» بما قالته. كل ما سمعه لا يعني له شيئاً. محض خرافات. كما يحلو لك، أجابت. سيسقط في المتاعب لقلة حذره. ومع ذلك فقد أبلغته بما ينبغي نقله. وترجو له التوفيق فيما يسعى. كان هذا كلّ شيء.

(2)

في صبيحة ذلك اليوم الصّاقع من تشرين الثاني، كل ما يُمكن سماعه في السوق «تريليا-مُرجان». تتشكّل ذرّات المطر على المظلات. أنشأت «رنين» تسحق كذب من النّمال بنعلها أثناء حديثها مع جارتها «ريماس» عن السيّد «وزير». وإذ بها تشتاق إليه شوقاً مُؤلماً. هذا رجلٌ لا يُمكن الاستهانة به. وما كان ينبغي أن تُفترطَ به كذلك. في الريف لا يشعر المرء بالحرية. لا ينبغي أن تُفجّر ما بداخلها بالصورة التي عليها. كما يبدو الأمر مُخزياً.

«هل حذّرتَه من أولئك الذين لا نتحدّث عنهم؟»

«أعتقد أنّه من الصّنف الذي لا يأخذ بالنّصيحة»

«لعلّه في عداد الموتى الآن»

تنكسف «رنين». وتحمّر كبطيخة مفلوقة. «يكفي عن قول هذا»

«لعلّه سلال القلوب أيّتها البلهاء»

«كلا، لا أعتقد»

وفي الإجمال، زعم السيّد «وزير» أنّها خُرافة ضاربة في القدم. شخرت جارتها كالخنزير المدلّل «أمزح» وقد كان مزاجها مُلائماً للهزل على الدوام. اشترت كيساً كبيراً من الشمندر. إضافة إلى كيس ثمار كَثَمرات الحكايات الخُرافية. ونظرت -مشدودة إلى الخلف- بين عربات تتغيّر شكلاً ولوناً. تأخذ بعين الاعتبار قُوّتها الشرائيّة.

«أي شيء تنوين فعله بعد تخرّجك من الجامعة؟»

«أسعى أن أكون زوجة رئيس دولة»

«لكنّك لستِ حلاّقة»

«الحلاّقة فعلتها ماذا عن فتاة الكلّيّة؟»

«أنتِ مُتجبرّة ومُقتدرة»

«تأكّدي ضمناً أنّ همّتي لن تخمد، أنتِ لا تعرفين شيئاً عن

ماهيات النّفس»

لم تستكنف «رياس» عن القيل والقال. كانت مُحْتقنة ومُهاجّة بالسيطرة دُفعة واحدة وليس على أقساط. تُفكّر أيضاً أنّ السّلطة عنصّر مُعقّد -وسائدة بغير إنظام- ستكتسبها من حيث الشّكل

والقوة. تريت هُنيهة-وعلى نحوٍ ما-استزادت كبالوعة لا تهدأ
أنها ستسوس البلاد الخاضعة في المكان والزمان المُخصَّصين لها
كما تقود جرّار والدها. سوف تكون-في العموم-على دراية
تقريبية دون إغفال ما هو وارد أو صادر. وعندما تصبو إلى ما
تسعى إليه بأكثر الوسائل بساطة، فإنها لن تتحكّم قدر الإمكان
بمشاعرها، أو حتّى بتقدّمها. الوحش النائم بلجة أعماقها يرى
التشعب الفوضوي وقتذاك. يعلو في مكان واحد مع استبداد
أكبر ممّا في أماكن أخرى. يكتسح بوتائر مُختلفة كل شيء.
وبتواصل تعاضمها بما ليس لديها، لن يُعرف إلى أين هو ماضٍ.
لا يستطيع أحدًا اللحاق به في هذا البلد الذي ينجح للتفكك.
موقفها بات واضحًا كحزب تنكري يتلع الدم. لا يُمكنها أن
تكون إلّا في أكوان الهلاك، والأشدّ ظلمة. إنّه الوقت الذي تشعُّ
فيه. «وحدها الريح تشي بوجهتها وأنا عكس الريح». لن تكون
ساذجة مثل «ماري أنطوانيت» التي قالت لشعبها: «إذا لم يجدوا
الخبز، فليأكلوا البسكويت»، لكنها ستجعلهم يأكلون الأوساخ
دون أن تقول لهم كلمة واحدة. إنّها ظلال السلطة. لا ترجو
أحدًا، بل تُلقِي الأوامر وتنفّذ بحذافيرها. استرسلت كاشفة

عن مواطنها. تُطلق شهيقاً يُشبه البكاء. عازمة امتناعها عن مد يد العون للناس الأكثر بساطة. إنهم فضلة بين المزابل. تجعلهم خدماً تحت قدميها. لا بل أسوأ من ذلك.

صاحت، بطبيعتها الفظة، تُشكل تصوّراً للفوضى. «سأجعل ضربهم مُتنفّساً لغضبي»

«لا أتمنى لك التوفيق فيما تسعين إليه»

قالت «رنين» بينما كانت يدها المترددة تنزلق بين ثمرات الكيوي. يُنافي هذا التفكير ما في غايات أمكر البشر. أمرٌ غير مُمكن. لا يوجد لا على سطح الأرض ولا على سطح القمر. يُحاكي قوانين شيطانية مُطلقة. «أمزح سأكون المعطى وليس الأخذ» شخرت «ريماس»- بين فواصل الصمت- كالخنزير المدلل ثانية. جعلت كل ما تُضمّنه طي الكتمان. ثم افتعلت عراكاً مع أحد الباعة. تقصّدت النطق بعبارات تحمل السفه. احتلّت موضعاً غير ثابتٍ. مُجيلة أنظارها بين اتّجاهات الهروب. لطمته- في ساعة الأخذ والردّ- بكيس الشمندر. ولّت «رنين» راجعة إلى بيتها مشدودة الأعصاب. تُفكّر في ما ينتظرها من مشاق، لا ينوء بها حتّى الرجال. وإذا أرادت، فضلاً عن ذلك، الحصول

على قسط من الراحة، فإنّ موجة من موجات الأعمال-الأكثر هشاشة-تشدها. بعد مضي شهر بالتمام والكمال، قُرِعَ الباب وكان قرعه مدعاة للقلق. تمايلت في ركود لازب. «تعطّلت سيّارتي» قال السيّد «وزير» ولَدَنَ عُقْدَةَ رِبْطَةِ عُنْقِهِ.

(3)

كانت السّماء شديدة الزرقة. وبصيص الشمس الغاربة يسقط - على نحو عمودي - بالأضواء على اليابسة. تظهر ثم تختفي خلف فجوات ثخانة الغيوم. لاح وجه «رين» مكسوراً وفيه تجاعيد القلق مثل بُرتقالة مُسطّحة. تمكّن منها شُحوب الرّمن. عند الممشى الحجري يلحق ماء بحر المنشية زُرقة قدميها بفارق علوي. تلتقط ومضات لا تعرف إذا كانت موجودة. تزخر بتصدّعات لا تعرف عمقها. بين همهمة وسُعال أدارت بصرها - ذات الشمال وذات اليمين - إلى طفلها وصديقه «طلال». كانا يعدّان قلعة من الرمال. في ليلة شتاء مائجة أنجبت «مُرتقب». أخبرتها البصّارة أنّ هذا الوليد سيستظر حدوث الأشياء دون أن تحدث. وستكون حياته سلسلة مُتواصلة من المحن. سيفقد من يُحبهم واحداً تلو الآخر. يُمكن أن تصير الأسماء فواجع تقطع المسارات لهم على أكمل وجه. كان التفكير شديداً متى جاء أحد البحّارة - على حين غرة - من الخلف.

هرش رأسه قائلاً:

«ما الأمر؟»

نأت عنه مع إطالة التحديق، وعديمة الخبرة في خلق حوارات. كان لديها تصاوير جليّة، تفيض بالحيرة إلى هذا البُعد الحسيّ، لقد أصبحت أكبر من ألا تتحدّث مع الغرباء، أو حتّى من إقامة صلة مع البحّارة، أقلّ تعقيداً من نواح أخرى، إذ ثمة رغبة دفينّة بالتقارب الأقصى، يُوقظ التأسّف على ما فات، هو أمرٌ يُناشد اكتشاف أروقة النّفس، تخلّت تقريباً عن تلك القاعدة الشاملة. شيء ما يدفعها إلى إنشاء علاقة مع العالم.

«من أين أنتِ؟»

تُصرّ على أسنانها كاتمة سُعالها مكان أن تُطرده. «من مدينة مساكن»

لاح كمن دُهِشَ. «لكنتكِ تُوحي بأنّكِ أتيتِ من الريف»

«أنا أَسْتَقَرّ في المدينة»

«أراقت لكِ المدينة؟»

«كلّا. ليس تماماً»

«أحسبُ أنّ حياة الريف أسهل من حياة المدينة»

أجابت مُتَعَصِّضة وساكنة. «في الريف يتقبَّلُك النَّاسُ كما أنت»
 «المثل الشعبي يقول: في النهار مساكن وفي الليل سكاكن»

لوت حاجبيها. ويمخِّرُ الماء البارد قدميها إلى السطح الواطي
 مرّة أخرى. ترك لطفة حمراء. كانت تُفكِّرُ في الرغبة التي
 فقدتها-يومًا بعد يوم-منذ قدومها إلى المدينة. لم يُحبِّها النَّاسُ
 بتعلّة طبيعتها العفويّة. دائمًا تشعرُ بأنّها تحت السيطرة. كانت
 تلك أعمق فكرة فكّرت فيها. لم تنهأ تمامًا بحياتها في المدينة، حيث
 يتخصّص النَّاسُ في شؤون بعضهم البعض ويضخّمون الغيبة
 والنّميمة. «هل فكّرت في الانتقال إلى الريف؟» قالت مُقترحة
 فكرة تودّ إيصالها لا طائل فيها. «لم يكن يخطر في ذهني. لا يهمني
 أين أعيش. أنا بحار» نظر إليها ساهمًا. بدا تفكيره نيّرًا على نحوٍ
 لافت للقلب. لا يحتاج مُقربًا. بل مرئيًا بالعين المُجرّدة. ويحمل
 قدرًا من الحكمة. حسبت أنّه سيرُحِفها. غارت قدمها في جُة
 البحر. تساءلت ما هو وجه الشبه بين تلاطم البحر وتحطّم
 دماغها. من هذا إلى ذاك ينبثق تصوّرًا من إيقاعات روحها. لعلّه
 من المعرفة المُسبقة والدفينة. أو من جانب الريبة، عساه من أيام
 باذخة الحزن. لا شيء من كلّ هذا له أن يُدلي بدلوه عنها.

«سعدتُ بالحديث معك»

«لي الشرف»

«إذا كُنْتُ بحاجة إلى الدردشة، يُمكنك القدوم ساعة تشائين»

«يَعِيشُكَ»

جذبت باب السيّارة وأطبقته. ليس مُغلَقًا تمامًا. أعادت غلقه مُحَدِّثة ضجّة بمعنى ما. تبحث عن أي يقين. طريق العودة المزعوم كان أكثر ازدحامًا. أخذت معبرًا آخر مُستبعد. في حُسبانها أنّها ستتخلّص فيه عن تلَهْف السائقين. يكمن قالب المدينة الفعلي في تصعيد الهرج المُتّصل بها. أدارت المرأة ليكون طفلها وصديقه أمام ناظريها. يغرقان في الخلفيّة المُعتمة. وفي طريقها تسترجع ذكرى مَضَتْ. كم كانت وازنة. كأنّها تشهدُ المدينة في مرّتها الأولى، منها المحال والنّاس والمنازل الضخمة. من العادي أن يكون الأمر على هذا الحال. لا تتعدّى هذه الذكري سبع سنوات. كل شيء حدث على عجل. وترك فيها انطباعًا قائمًا. إلّا أنّ إحساسًا بالخوف ظلّ يُراودها. وليست مركز العالم ليتفجّر كل ما هو موجود.

«إلى الملتقى» صعد «طلال» يده دلالة الوداع. يستقبل رُعب الليل بـجُنبه. تتجلى آفة ليله على نحو استثنائي ومُغاير. فضلاً عن مُضايقات أقربائه. لا يُحيطونه بكلّ الرعاية. تحوّل إلى بيت عمّه إثر هلاك والديه في حادث سير. وعلى هذا الأساس انتأى عنهم بصرف مُعظم وقته في اللهو خارجاً.

البيت الذي تقطن فيه مكانه في نهاية المدينة. وتصخب الجدة والدة السيّد «وزير» على قدرٍ من التسلّط كدأها.

«لماذا تأخّرتِ عن العودة»

«الطفلان أرادا البقاء زمنًا أطول»

«زوجك ظلّ على إنتظاره لك»

وجمت «رنين» في المُكعب المخروطي، تاركة الجدة تُغمغم وتنفّح كتّين الحكايا. تحمل معاني الإمتثال. الصمت والتغافل مشروطان للعيش في هذا البيت. وبالسُّبيل الأكثر سلاسة تُؤخذ إلى الخضوع. غالبًا ما يكون حلقها ثقيلًا-خشناً وناشفًا- في هذا الوقت من المساء. ورُفات التّعب تتمطّى إلى جفניה. يمتدُّ اللون الداكن بوضوح أكبر إلى الأزقة. خلقت العواصف الرعدية

لتجتاح المدينة بسلطانها. ترسم بثقل عنفها المنتظم لقاطنيها. ويختلط مواء القطط الضالّة مع صفير الريح، ممّا ينجم عنه جمال حزين يشدُّ الضيق. كان الطفل «مُرتقب» مُضطجعاً إلى سريره. يترّبع على ملاءات من الأرناب الزرقاء الصغيرة. يترقّب أوان العشاء. يُقلّب صفحات كتاب للأطفال. لا يفهم مُعظمه. لكنّ إستياء أشخاصه يرنّ في قلبه. له أن يشعر بضيق عزلتهم. هَرَسَ عينيه المُتعبتين وفزّ من فراشه على شكل مُعادل سجين ينزلق من أي فتحة. أتى ناحية الشبّاك والمطر يقرع ضباب بلّورها. خلع قليلاً من ستارها. قدّر أن تقع عيناه على سيّدة. ترندي عباءة كُحليّة وتحور حول الصنوبر. أحجمت عن دورانها وراحت في لوعة تنظره مُلتاعة. هزّت رأسها تدرّ السحاب الأسود، فاستدرّ خوفه إلى نار تتشظى. لا يتحرّك قيد شعرة. بإبهامها أشارت أسفل رقبتهأ بُرّهان انسحاقه وإنحداره. في حينه زغللة باعته كادت أن تكون غزيرة. يندلق من عُرفته. يتبيّن بصره ما هيّاته الجلّة من طيخ. يتلعه توبيخها بمُجرد أن وطأت قدمه الضئيلة الفراغ. يعتقد الناظر إليها أنّها ثعلب مُشتعلة، لكنّها تنشغل بذاتها عن من يُقلقها بخطواته ، وعن من يتلصص عليها.

يدعن الطفل إلى أوامرها. يُجر جر أحد الكراسي. يقبع فيه غائم العقل على مألوف العادة. كان السيّد «وزير» مأخوذ برواية «غادة السمان»، «بيروت ٧٥»، تند منه إبتسامة-من وقت لآخر- ويؤدي دهشة بلغت حدود الإعجاب الشديد، بـ«نمر». يُكشّر عن أنيابه-مثل الكلب-على جري العادة. يهرش عضوه التناسلي. يعبث بحزامه في غنج. يشعر بالألم في فذالة عنقه. يمتدّ الوجود إلى آخر نقطة في الظهر، لهذا يُؤثر الاستلقاء على السرير في معظم الوقت. كان هذا سبباً آخر يُعيق تطوره الشخصي. يستبِق نحو مائدة العشاء بخطوات شكسة و«نمر»-الذي يندر مثيله- ماثلاً في ذهنه. تهبّ «رين» والجدّة لبسط الطّعام على أكمل وجه. في وقت الضيق تقول مُثَلّة شمطاء من خلال الراديو أنّ الماتى المبدئيّ في تردّي إيفاء رئيس الحكومة هو عدم قناعته الجنسية. تلهث «رين» سارعة إلى كبح المذيع وكانت ذاهلة من الوقاحة التي تناهت إلى مسامعها. تهتزّ رأس «وزير» المدودة إلى الأمام. يلوك شرائح اللحم المنبسطة. رقاقة من الشحم تفرّ من فمه. يتلقّى رسالة على هاتفه. يبدأ-سرّاً-في قذائف الثلب الملتهبة. فيستأذن منهم بالسهر خارج البيت.

«سأبقى حتى وقت مُتأخّر من الليل»

وُثُوْلِي «رنين» راجعة إلى شريط مُساءلاتها عن لياليه الخفية. ترشقه -مع الأخذ بعين الاعتبار- باتهامات الخيانة والتهوّر. في خِضم هذا الموقف، يُطالعها والرّأس يترجّح. وجتاه لونها ضارب إلى الحمرة. هاج وماج. يُلقى بالمنديل جانبًا. كان يقول ما لا يفعل. تجده في طابور ثمّ ينقلب إلى طابور ثانٍ وهذا بسبب الاضطراب ثنائي القطب.

يُحوّل أنظاره عنها بحركة حلزونية. ينتفخ حلقة، وابلٌ من اللعنات: «ما تقولينه يُجافي المنطق. لا أستطيع حتى أن أشعر بعضوي من العقاقير»

ترتعد «رنين» على ما هو عليه بالفعل. تنطّ من مقعدها. صلابة أطرافها تُعيقها إلى حدّ ما، بعد أن أرهقت الجسد واستنفدت قدراته في التنظيف. كان عليها تصويب ما قيل وأن تتلافى أي حريق.

يطول بها التهديد. «اجعل لُغتك الجنسية على الأخصّ بمعزل عن الطفل»

يحدثُ هذا، أن يجد السيّد «وزير» مأذونيّة مُزيّنة لينبثق -في حدود مُعيّنة- من شأن غضبه المكبوت هذا. والذي ينطوي على قرفه. يلتقط -في نطاق بصره- سائر الأطباق المرقّطة وتتشعب مُتعرّجًا. يقلب الطاولة رأسًا على عقب، يجعل أعلاها أسفلها. يطفو دفع الغضب أكثر ممّا عند غيره. وتعزف المدينة بالأيادي المدنّسة على أوتار الصمت الكُبرى. أو على العكس من ذلك. ضجيج الصمت يتلاشى مثل آلة مُوسيقيّة زاوية بلانوات. إنّ ما يجمع بينهم واصر العُقد. يُكابدون من عُقدة المجهول. إنطلاقًا منها، أفراد هذه العائلة، عبثًا، قد جمعوا ما بين فرادي العُقد. يخلّفون عن أيّ عائلة أُخرى. هذا يُمثّل ميراثًا مُتواصلًا للطفل. رنّ الهاتف في ساعة متأخرة من الليل.

كان المتّصل سيّدة. قالت:

«هل تعرف؟»

أجاب «مرتقب» وقد فرك عينيه. «أعرف ماذا؟»

«الجميع يعرف»

«يعرفون ماذا؟»

«أنهم يعرفون؟»

«ماذا؟»

«يجب عليك أن تعرف أنك تعرف»

«أعرف ماذا؟»

«أنك تعرف»

«ماذا أعرف؟»

«إذا لم تعرف فمن سيعرف؟»

أغلق الهاتف جزعاً. تتلوى شفتاه مثل الثعابين الممزقة.
وصاح باكياً «أمي ثمّة من يستغفني في الهاتف»

يهجم على السيّد «وزير» انفلات وحشيّ بتشوّش نظام
عقايره. يفقد سيادته على كوابحه الأخلاقية والاجتماعية.
أشياء بغیضة يفعلها. يصطحبُ إلى فُندقه أي فتاة مُظلمة يجدها
بلا مرفأ. تُشاطرهُ ضياعه وقرفه. يعجز عن السيطرة على ذاتيّته.
وجهه يشرق كفزاعة تُرهب الطيور. جوع شره ينكأ الشُروخ.
إنجرّافات تقفز من جُثمانها. يفعل بها ما لا يفعل حيوان بفرسته.

إنَّها بكُلِّها له. بفورانِه ونزعتِه الطَّاغية يُمزَّقها إلى قطع صغيرة
ترتجف. يبحث عن مَتعة لا يجدها. وكانت زوبعة من الجنون
اللذيذ والفوضى. وجهها يحتقرُ حنقه الفارغ فينفجر بالزيادة
محمومًا. ولما ينتهي يمتُّ نفسه. ويبكي لماذا فعل هذا؟ يُعيدها
تشرَّد دَمًا من حيث وجدها. وشريط هزَّاته الشبقيَّة يتبعه. شعُر
أنَّه امتصَّها على آخرها وأراق فيها هوسه على آخره. أراح نفسه
من عناء التحنيط في قبو فندقه. لم تمت مثل سلفها، التي بفضلها
صنع مقعدًا مُغطَّى بجلدها. يضعه في مكتبه الخاص.

(4)

طلب منه عمّه أن يُنيله المال بما لا يُقاس شريطة أن يُنزل له بنطاله مُتمهلاً، فيكشف عن عورته عملياً إلى ما لا نهاية، ويُبقي الأمر سرّاً. كان عاجزاً عن أي ردّ. أشار «طلال» بعينه أن لا. ليس في ذلك ما يدعو إلّا لإنقباض الصّدر والهرب مثل ضباة في دُجى حالك. وكانت حياته على هذا الشّكل. لم يعد يحتمل أي إساءة من أحد. كان يخسر نفسه. يحلو له على بساطته أن يتلمّس طريقه إلى بيت «مرتقب» الذي أعطاه ضمّة. قلبه يدقّ دقات مُلهوِجة. تحوّل عفيف الرّيح إلى نسائمٍ دافئة.

اندلقت كلماته من أعماق ذاته. «أخبرني بصريح الصّداقة؟»
«الصّداقة، أن تكون جدار صديقك أثناء حاجته، وليس أن تعضّه متى يكون مُحبطاً»

خلع «طلال» عنه نظّارته. كان ردّه وهو ينظر إلى أعلى، مثل فرس نهر جائع:

«حسبتُ أنّها بسلب طعام صديقك»

انزلقت شطيرة «مرتقب بالجبنة والطماطم في حركة فطرية إلى يديه، على مألوف العادة. كانت بدانة «طلال» بالغة أشدها. لا يني عن الإفتراس إطلاقاً، ممّا صادفه التوفيق- في وقتٍ ما- بتوهج داء السكرى. كانا يفتسان وقت الأحد في الغاب أو يتسكعان في الجبال. على الأغلب يحوز «مرتقب» الثلب من «طلال» ذلك أنه يتهادى أثناء سيره. تجاهله. رفع يده إلى رأسه غير الموزون. وغطس في شرود يُحرك في الأعماق أرقّ المخاوف. أحسّ شيئاً خفياً يتبعه. الشمس فاترة وضعيفة. تهياً للمغيب المقيت. يجهل بُؤرة وجهه من المغيب. ويجهل حكمة الإله في الخلق. ويجهل النقاط المحورية في وفاة والديه، واستحال جهله فيما بعد إلى ارتباكٍ باقٍ. يتوثّب من فوق السور بمشقة الهاجس الذي يتعلّق برأسه. يُلعبُّ البول في وضعيّة غير مُحْتشمة. كانا مرصودين من شبح سيّدة ذات وجه مُتجهّم، شديدة اليقظة والتّقمة. تتجسّم بعباءة سوداء وعلى رأسها قُبعة لا تقلّ عن قُبعة السّاحرات.

صدحت حُنجرة «مُرتقب» «لن تُصدّق ماهيّة الشيء الذي اعترضني»

يلتقط «طلال» أنفاسه المتلألئة برش بعض البول على
بنطاله. «أي شيء؟»

اعترضه ثعبان ضخيم، وكان غاضباً. خلّص فاردّاً ذراعيه
يخصّه بثقل الحيّة دون سواه. يميل في إسترعاء التنبّه من خلال
سرد قصصه المُرعبة. كان «طلال» يُريحُ فمه كسيّدة قلقة أنهت
فضيحة طازجة. «كاذبٌ» يعقد ذراعيه إلى صدره ويشمخ برأسه
بعناد «رُح بنفسك وسترها». ما عتَم أن اندفع نحو «طلال»
مُستطيّاً تخويفه بأسطورة الأفعى الجائعة التي تسترطُ الرجل
السمين. يتبادلان اللّكلمات بالأذرع. وبالطريقة عينها يقذفان
بعضهما بكلمات فجّة. غربت الشمس، شاهقة. إغتنس السّاحة
وعبثاً أثقل في دُعر طلال من مجيء الليل. ينتفض هذا الأخير
ويتعد بخطوه اللاهث تتنازعه تشكيلة الوسائس.

«أخاف الليل»

وقعا على شيء يُشبه القبر. يتعدان خشية أن يستفيق
العبد المغبرّ من غفوته. مُطبق الأجنان ينتزع «مرتقب» قطعة
خشبيّة ضامرة كعود كبريت. ويغمرها في جوف القبر. تنطلق
رائحة التراب عطنة. بصره مثقوب مع الذراع الخشبيّة. يرمجه

«طلال» -قلق التفكير- بصعقة غير متوقّعة. اصطدم شيء ما بذراع الخشب. يسعل بأنفاس متهدّجة. يسدّ أنفه. ويتعجّل في إعائته. يحفر يده في التراب لالتقاط الشيء المشبوه. إستلّ حقيبة من جوف القبر. وأنبطح على بطنه. تكاثر البعوض. أحسّ بشيء مُلتاع يلمسه. يهتزّ جسده وانفجرت شهقة مُرتاعة تنّ منه. يتلقّف «مرتقب» حقيبة سوداء نديّة من يديه. ويضعها على الأرضية خافض الرأس يتفحص ويستوضح. تتألّف المُستكشفة من أشياء غريبة.

قال «طلال». «صُور لكلّ أهل المدينة ولُعبة جومانجي»

لا يني عن الإهتزاز فزعاً. يكشفّ الذباب عن وجهه. يجرّ نفسه جرّاً مُنقباً عن «مرتقب». يتعلّق برقبتة على وشك البكاء. يعتقل الصّراخ المذبوح في حلقه. كأنّ البكم أعاقه لحظتيذ. يرخي الليل سواده وهواءه يتسرّع. تصدّعت عصا جافّة. تحوّلت أبصارهم إلى مصدر الجلبة على حين غفلة. تنبّها إلى وجود السيّدة الشّريّة كامنة بمكان مُظلم. وجهها كالماصة من الصّبغ. ثارت نحوهما تتشجّ بمغناطيس تقودها بقرة مجنونة ناطحة. لا تدري أي شيء تفعل. مُفعمة بأسلاك غضبي، عطشى للنّقمة. تُرسل في طلب

التهدم. وتشخب الدّم. شدّدا التَحَدُّرُ إلى الطَّرِيق السَّريع في حين
كانت تُشَيِّعهم بهُتاف لدوغ وصفعات الموت. تحترق بُرْكان
أهوج. لا يُعَيرونها أَضْعَفُ التَّفَاتِ. من تلك المُرْعبة هُناك. لم تعد
هُناك بل صارت خلفنا. شفعت لهما سَيَّارة عابرة لِحُسْنِ الحظ
كانت «رنين» تقودها. صعدا إليها خطفًا.

«ما أمر كما؟»

«ساحرة شمطاء تتعقبنا»

(5)

ذات صباح في تشرين الأول/أكتوبر، كانت الشمس مُشرقة بشكلٍ صارخ. المباني تصلي بالسيّاط المحموم. انطلقت الرّيح الباردة بعثوها. بدأ الخريف في التقاط حقائقه منذ أيام قليلة. تلمّست «رنين» المذيع المضاء. لم يكن مُعيرًا على نحوٍ جيّد. ينبعث منه أنّ زوجة رئيس الحكومة تُقاضي المُثلة على أساس هذا التصريح اللاأخلاقي. أطفأته. شاهدت ركض أولاد المدرسة من بعيد. تناهت إلى مسامعها الوشوشات والهمسات. يلعبون الغميضة. يبحثون عن مهرّب، مكان آمن للاختباء. يهتزون بشيء من الحُبور. حالما يكبرون سيدركون أنّ هناك هزّات، لا يعود المرء بعدها على ما كان. كانت على دراية كاملة بهذه الحقيقة والأمر يعود إلى البيئة التي نشئت فيها إذذاك. نزل الطفل في مؤخرة السيّارة. لم تكن طُموحاته هي نفس طُموحات عصره. لقّنته «رنين» حبّ الكتابة والقراءة، لذلك يُريد أن يُصبح كاتبًا مُتخيّلًا. يُقارع الأشرار بالمُخيّلة. أمّا بقيّة الصّغار فلديهم إمكانيّة «الغميضة» والسعي للتّواري الأبدي من الوحش الذي

يُلاحقهم. في حين كان الصغار يفرون من الوحوش المترصدة بهم، على حدّ سواء العُبَيْثَة أو كما يُسمّيها البعض بالغولة المَخيفة، لم تستكف الجدة عن الهمس والدردشة. تعرفُ «رنين» ضمناً أنّ هذه القصص كانت أساطير بحثة. يُمكن القول أنّها نادرة الوجود. لكنّ الريف، وعلى وجه الخصوص من أهل المدينة أنفسهم، آمنوا بها. التّواطؤ هو الخديعة. لا أحد رأى تلك المخلوقات رأي العين بأية حال. ما كانوا يملكون دليلاً قاطعاً. هذا بالزيادة أنّ أخبار إختفاء الأطفال كثيرة النّشر. ربّما أي إمكانية أخرى كانت صحيحة. راودها شعور أنّ المنزل قد اقتحم في غيابها بغير حساب. سرعان ما ينكمش صدرها. لدى الإنسان رادار قوي بأن شخصاً ما قد عبث باحتياجاته، حتى لو وجدها كما تركها. كانت مُدعاة لتوتّر الأعصاب. هذه الفكرة في أعماق فحواها. يُذكرها هذا بمرحلة آنفة من حياتها. مرحلة كثيرة الشّكوك. كل هذا الخوف يُوازي خوفها السابق. يجعل المفاهيم من حولها أكثر عتمة.

أحبطتها الجدة مُتمتعصة. تُقاطع كلامها الآخر. «لا شيء واقعي على غير ثبوته. أنتِ خوافة»

«أنا لا أختلق هذا»

انصرفت إلى المطبخ لاطمة اكتناز وجنتيها وقد كانت بالغة الردّ «بلى. أعرفك تمام المعرفة»

تراطم الهاتف مرّة أخرى أدنى إلى البله. خواطرها غامت مكدّرة من تكرار حياة سابقة، شأن كل الغوامض الأخرى. المشروطة بموسيقى ماضيها في مثل هذه الحال. إلى مثل ذلك الخوف الراقص سألت من فورها عما إذا كان السيّد «وزير» قد تحقّق من المنزل أثناء غيابهم.

قالت السيّدة عبر الهاتف بحماقة. «ذُرّي الطحين في أرجاء البيت»

ردّت خوفاً مع حركتها الأولى. «عُذراً، من أنتِ؟»

«أنتِ سألتِ وأنا أجبت»

وادّخرت ما تشعر به فعلاً:

«إعتقدت أنه زوجي»

«إنّما ليست غلطتك، لقد أخطأت بالرقم، ومع ذلك، افعلي ما أذنُ به»

«شكرًا لمشورتك»

صادفت نَشَاءً من السكينة. وكان بمقدورها الإكتفاء بالإستياء. على قدرٍ من الغُمُوض كانت سوى خدعة قديمة لتُعطي أماراة عن دُخلاء المنزل. كعادة أن يُترك مفتاح فوق قطعة من الثلج في الثلاجة لإعلامهم إذا قطع الدُخلاء التيار الكهربائي في غيابهم.

ليس في هذا، إذن، ما تخافه أكثر من فكرة خوفها أنها متبوعة. وكانت هذه الفكرة في أعماق فحواها. هذا شبيه بتفكير الأطفال. يُرجعها إلى هوان الطُفولة. غداة الغد، وجدت آثار أقدام ضخمة. كان من الممكن أن تُصاب بنوبة قلبية. من جهتها أيد هذا مع إتصال المجهول. تركت الطفل يتلذذ القشدة المخفوقة. لم تُخبر الجدة بذلك. ستصرخ في وجهها بلا شك أنها تختلق هذا وتُدّله. ثمّ تردم الدنيا عُويلاً. من هو الشخص الذي اقتحم المنزل؟ وماذا ينوي بالذات؟ هو ذا الجانب المفقود من المسألة الماثلة. رنّ الهاتف على نحوٍ مُباغت.

كان صوتًا دون تكلف. «هل فعلتِ ما أمرتك به؟»

«من المتصل؟»

«سيّدة الأمس، بقيتُ قلقة»

«هذا لطفٌ منك»

«ماذا حدث؟ قولي لي»

«اليوم دخل شخص ما إلى منزلي، خلف آثار أقدامه في
الطحين»

«أهذا صحيح؟»

«نعم كان فظيعةً»

«أسرقك؟ أكانت خطواته عنيفة؟»

«لا شيء مسروق، شعرتُ أنّ قلبي على وشك السقوط»
«إنّه أمرٌ مُحيف»

«ما هدفه من هذا؟ نحن لا نعيش بأمان»

«أظنّه قد مكث فترة ثم غادر»

«وما أدراك؟»

«فرضيّة»

«سأستنجد برجال الشرطة لإيقاعه»
«هم أيضا شركاء في هذا»
«هذا فظيع»
«تُشارك الشرطة في هذه العملية القذرة»
«هذا مُحجل»
«ثمة عمليّات سطو وأحيانًا يُمكن أن تسوء إذا لم تنتبه»
«هل اقتحم شخص ما منزلك بهذا الشكل؟»
«في أوقات كثيرة»
«وماذا فعلت؟»
«كنت أخفي نفسي وأفتعل أصواتًا مُرعبة حتّى يخاف ويُغادر
في آخر الأمر»
«يجب أن أكون امرأة مُستقوية ببندقية»
«ستُعاقبين بالسجن إذا قتلت الدخيل»
«رهيب ألا نعيش بسلام»
«هذه هي الحالة التي وصلنا إليها»
«أغلق أبوابك بإحكام»

«عاش أجدادنا زمان «الهنا» وتركوا لنا زمان «الهنا»

«أعتقد أن الناس سيثورون بشكل سيء»

«رَبِّي يُسْئِرُ»

لقد جُنَّ العالم. حَكَت لها السيِّدة كما لو أَنَّ الجَدَّة تحكي حكاية خُرافية- أَنَّ الجميع عاشوا ساعة الفضل في قديم الزمان. كُنَّا نملك حياة ناعمة. لم نكن في خوف مثل الآن. برغم كل شيء كانت عمليات السطو نادرة الحدوث لأسباب، الآن مَجَانِيَّة بلا إنقطاع، وفي أيِّ وقتٍ من الأوقات. الوضع يزدادُ سوءًا. نعيش أيام محسوبة وصعبة. إنَّهم يجعلون العالم أسوأ من خلال تعكير صفو الأخلاق والأساليب في أسلوبه الباطل. بالإمكان أَنَّ تتولَّد حصيلة مُؤسفة في وقتٍ لاحق. في هذا العالم يجب أن نخاف جميعًا قدر المُستطاع. أن نكون حذرين ونستمرَّ في الخوف. ولكن ليس من الطبيعي أن نعيش على حال لا يخلو من العُنف. لقد قادونا إلى النُقطة الَّتِي لم نعد نعرف فيها ما هو عادي وما هو غير عادي. والمقصود هو إنشاء عالم مريض يُثير البلبلة. ينجم فيه الأُحد الأقصى من العداوة.

كانت الجدة أعجوبة من الهدير - وسعيًا مُستمرًّا للإذلال -
لحاجتها الدائمة بأن تُرى. زِدْ على ذلك تبدو مُدعاة لصغَطٍ ما.
لا تُظهر شيئًا من الجانب الإنساني. مُتوسّطة القامة ومُستديرة
الشكل. لديها شعر أبيض مع شُعيرات بالحناء. تلبس نظّارات
دائريّة ذات حجم كبير. رأسها نصفه ملفوف في وشاح. وكل
ما أصبحت مُجيده مؤخرًا هو طيّ الشراشف بتضجّر واضح.
وهذا كل شيء لا امرأة مُسنّة فقدت جزءًا من بصرها. لديها جين
يكنى العامل الخامس ليدن. أي أنّ دمها يصنع جلطات. تناولت
مضادّات التخثر بالرغم من إصابتها بسكتة دماغيّة قبل عام. كما
عانت من التهاب الوريد. الانسداد الرئوي. حار فيه الأطباء.
ومع ذلك تحظى بمتّسع من الوقت في هذه الحياة. كانت جالسة
على الكنبّة متى ترمى إلى أذنيها صرير فتح الباب وخطوات
خاطفة. تبذل ما في وسعها لتفحص هويّة الدخيل. مرّ شخص
مجهول ودخل غرفة السيّد «وزير». مكثت الجدة ساكنة، مُتصلّبة
الأطراف. مأخوذة برُعب لا يُوصف. تجرّأت مُتباطئة وسحبت
قدميها بثبات وبصرها إلى الحائط. تتلافى أن تتلاقى نظراتها مع
نظراته. يداها مدسوستان تحت الملاءة. هذا أخفّ حدّة. كانت

توجس مما رأت. يتزايد الطنين بعقلها. لا يتركها الاهتزاز لحظة واحدة. تكتم خربشات أفكارها. برغم كل شيء، ماهي إلا هُنيئات حتى تسأل الرجل الغامض من الغرفة على الأثر. تنبه أن الجدة كانت في المنزل. وقف طويلاً أمامها. تكلفت الجدة أنها ليست دارية بأي شيء. بحرفيته مرّ يده في فراغ الوجود من حين لآخر. لم يند، من جهتها، سوى ارتعاشة يد صامته وآفات أخرى. كأنها مجرّدة من كل وجود. كان أيضاً يُعينها على إخراج أكبر قدر ممكن من الهلع. لا يني عن فعل ذلك. يفرض وجوده عليها. ولأول مرة -مُتالكة عطسات مدوية- تُظهر موهبة خفية في الأثناء. لقد أُتيحت لها الفرصة لإتقان فنّ الاقتصاد في ردود الفعل. كأن يقبص الخوف أنفاسها. ولا بُدّ من السعي للسيطرة على النفس. يلحّ عليها بكل الأسباب المتزايدة على أن تفقد توازنها. في مُستطاعها أن تُؤدّي دور الحمقاء بكثير من الحيلة. وتستعين بالصمت عليه. كان هذا يُزعجها. وأشياء أخرى عديدة. ألم الصداق النصفي يعلوها. يبدو الأمر مُرهقاً. تشعر بالحاجة لأن تختفي. حسبه أن يُلقي فحصاً سريعاً عليها لكي يُدرك أنها مُدركة بواقع وجوده. قد راق له هذا الجو. «عجوز بلهاء» قال الرجل الغامض هذا، تاركاً إيّاها في حالها. بمعمعة

حازمة راحت الجدة تسترجع أنفاسًا قد حبستها. ما سبق لها- ولو في المخيلة- أن سقطت في حوض الخوف هذا «يا له من حيوان» خرجت كلماتها مشروخة. وتكتفي باللعنات الخفية. فقدت رغبتها حتى في تناول طعام الغداء.

أُصيب السيد «وزير» بنوبة أرق وكان التفكير الفلسفي ينحط مناحي رأسه. يخلُص إلى التساؤل عن سبب وجوده. ثقل التفكير المضطرب يجعله غير قادر على العمل. لا يزال مُزْمِعًا على المسير في هذا الطريق المنفلت. لا يتوقّف عن إدمانه. مآل هذا الهوس غير محسوب العواقب. يمضي راكبًا سيارته ويهوم بين الشوارع ليطارده فتاة ليل أخرى. وقائع لا تني تحدث. ينقلها إلى فندقه حيث كان يسمح لرجال الحزب الحاكم بتفريغ أعباء التعب وإيجاد العزاء في العبث ببعض النساء. وما عرف أحد من عائلته هذا الوصر بينه وبين رجال الحزب الضّباع. كان حسبه أن يُزوّدهم بالغُرف لقاء أن يفعل- هو الآخر- ما يشاء. هذه مدينة مُشتّتة وتألّم، فليفعل الأقوياء فيها ما أرادوا. وإلى أن يحتفي بالجميع وما عاد، باستثناء جاره- الذي لا يدري أنه عمّ طلال- والذي كان يراه شخصًا بغيضًا. لأنّ المعتوه يرغب في

جلب الأطفال. كما أنه لا يفهم أنني له أن ينال درجة الإجازة والمجستير والدكتوراه في ثلاث سنوات فقط. وهذا نزاع يطول شرحه. وذلك الاضطراب متى ينحسر؟ يقع في حفرة سحيفة الهوس. يستسلم للنهم الحيواني. زخات المطر تنسكب كدمع حزين. يجب أن يستكين من شهوته الوحّازة التي بُلي بها. فتاة الليل مُبعثرة. تعول وصوتها فيه استنجاد. تصرخ مُنهكة مكتوفة الأيدي والأرجل. الجدران مصنوعة من عازل للصوت. لا شك أن صرخات الفتيات اللاتي كُنَّ في وضعها ليس بعيد عن صرخات موقعها الشقي. بكلتا يديه كمّم السيد «وزير» فمها وكسّبع سقط عليها بحمله الثقيل. تنتفخ عروقه. يفور دمه نافورة هائجة. يضرب الأرض بقدمه المتعرّقة شللاً. كانت عيونه تُفجّر أنواراً دامية كالنار التي يُطلقها التين النافث. فتاة الليل تغطّ غيمة هامة في نوم أبدي. لكنّه استمرّ في جنونه. يهتزّ كثور جائش يُربكه الهدوء. ذهب به التفكير إلى كيفية التخلص منها. سيتزع جلد وجهها ويصنع لوحة باهرة يُعلّفها فوق مكتبه.

(6)

في عشية تشرين الثاني / نوفمبر لم تكن حادثة الجدة هي الوحيدة من نوعها. كان لا يزال الصقيع في أيامه الأولى. شكّلت «رنين» قُرْنفلة فوق أذنها تُغالب الفوضى الخفية بتمايل جسدها في حركات مُشاكسة على إيقاع الموسيقى الكلاسيكية. تُطبق جفنيها، ساهية. وتتقدّم بخطوات طريفة. أظرافها مُترامية كما ينبغي. ثمة شخصٌ مجهول يرقبها من فتحة الباب دو تردّد. اعتقدت أنها قد سمعت شيئاً مضموناً مئة بالمئة. مالت برأسها نحو الكتاب الذي تحتضنه. معروضة للجهة التي يأتي منها الهواء. كان الجو صحواً. وحافية القدمين تُواصل مشيتها على خطّ مُتعاكس. تشتعل حماسةً. تدور بحركة لولبية ترقص بحرقه. ظلّ الشخص المجهول يترصدها. يتعالى صوت الموسيقى فتدور حول نفسها عكس دوران عقارب الساعة، كريشة في الهواء الطلق. تشعرُ بإرتجاجات مُتواترة. تُعيد الحركات إيّاها. ويشتدّ رقصها مجوناً. كأنّها فأرة تطوف فوق قصديره. تنبّهت، بفواصل زمنية، لجلبة الباب. جنحت حرّكاتنا نحو الخفوت،

راكدة. يحدوها اليقين أنَّ هناك من يتبعها. سرعان ما اختفى من الجهة الأخرى تاركًا صغيرًا حاد. أصبحت الأركان ساكنة حتى صدح جرس الباب مُتمهلاً. نُجِّل بصرها بحدقتين مُتعبتين. تشعر بكثير من الضيق. صاحبها الخوف الشديد. ضربها السُّأم. شرَّعت الباب بإندفاعية صريحة، لتبيِّن حقيقة الأمر.

تلكأت جارتها مع وقفة حازمة لبعض الوقت. «أرجو
المعذرة، لا أرغب بإزعاجك»

أحسَّت بقرصة صقيع. «لا إزعاج في الأمر، لا شيء آخر لدي
لأفعله في هذا الوقت»

ثم قالت «ستعادين على إزعاجي»، أذاعت ضحكة مُقتضبة
وأطلقت طبق المُعجنات لتستلمها «رنين» إذذاك.

«كنتُ أرغبُ في التعرّف عليك»

«هذا من دواعي سُروري»

«لستِ على أحسنِ ما يُرام»

«حسبتُ أنّي سمعت ضوضاء قبل قدومكِ بهُنيئات»

قالت وقد كانت تسعى لدعة السكينة. «لم أرَ شيئاً عندما أتيت»

«ألا يُصادف أنّ مثل هذه الجارة الجميلة لا أعرفها»

عدّلت الجارة صدره الصوف. كانت طاعنة في السنّ. ولا تخلو من الغرابة. أسرّت لها أنّها لا تعيشان في حيّين مختلفين كيلا تتعارفا. سارت خلفها مُجيلة أنظارها على طول المنزل.

«شاهدتكِ يومذاك تتجولين بين العربات رفقة حماك»

«أنني أتسوّق برفقتها، غالباً»

«لكنّكِ رفيّة، من أين أنتِ؟»

انطلاقاً من هذا التهكّم الصريح أخذت «رين» مُستقرّها في حقل رؤيتها للجارة ولم تبد جواباً. غلبها النّعاس لفرط ما طالت بها السكينة.

قالت الجارة:

«أنا من أصل ألماني تزوّجتُ من ابن هذا البلد وقرّرنا العيش هُنا»

لم تلبث أن غمرها الضجر حتى ضحكت بصوت فيه حشجة، ممّا أشاعت انطباعاً مثل الريبة في دخيلة «رنين». أثنت رأسها إلى الأسفل، داهشة. وبطلب من المرأة المُسنّة جلستا في المطبخ ليتبادلا أطراف الحديث. فالمطبخ كان مُريحاً ومُشرقاً أكثر من الصالون. أبدت ترحيباً وإستحساناً بحُلولها. أعطتها كُوباً من الحليب بما يُلائم سنّها دون الحاجة إلى تقديم البسكويت.

«كيف تعرفين أنّ مطبخي أكثر راحة من الصالون؟»

قالت جارتها وكان فيها شيء جعلها تفلت من هذا السؤال:

«لم أقصد ذلك. جميع المطابخ مُريحة للدردشة»

لم تجرؤ الجارة النظر ناحية «رنين». ولم تستطع إلا أن تغطّي بطنها بيدها طالبة الحّمّام في حركة صميميّة. ومع ذلك، فإنّ الجارة ما كانت باحثة عن الحّمّام، ولكن عن شيءٍ ما. دون أن تُراودها أيّة خاطرة أخرى دلفت عُرفة السيّد «وزير» بحذر، دسّت شيئاً يُثير التفرقة والخلافات بين الزوجين، وسرقت الأوراق الممدودة وحزمة المفاتيح. متى عادت -مُنذ بعض الوقت- أخذ الصمت مُتوالياً، أكثر وضوحاً حتى اقتنصت الفرصة لتصرف. عندما

قامت بفحص الأوراق المسروقة وجدت أنَّها محض رسومات
ساذجة للطفل «مرتقب». أمَّا أمر تلك المفاتيح فكانت لمنزل
أقاربهم المهاجرين. كان الاستياء يتوالى وقد أصبح مُتزايداً أمام
زوجها. مثل كل الأخطار التي طفقت.

سحبها بسرعة خاطفة ثمَّ صفعها وحركاته وحشيّة. «إمرأة
حمقاء»

ردّت تحت الإضاءة الرديئة. «لا يصعب عليّ أن أعود
الأسبوع المقبل»

أطلق ردّة فعل أدنى حماسةً ممّا يجب. «هذا غير مُمكن»
«صدّقني حين أقول ذلك»

تسقطُ ذارعه اليُمْنى باسِطاً كفّه بالتماسك الكافي والسيّل
المتدفّق لدلق غضبه:

«انهضي»

عاود بطلاقته سُقوط يده نحوها متى شاهدها تنهض:
«لا ترقدي هُناك»

ولما كان قد أكثر من ضربها ركلها بجزمته الكاوتشوك. دلف «طلال» ووجد جسد زوجة عمّه مليئاً بالكدمات. أمّا ما كان من أمر «رنين» الحائرة، فكان لأبد لها من إخفاء علامات مجيء الجارة حيث أنّ السيّد «وزير» يتلافى استقبال الزوار في كل الظروف.

بُحلول ديسمبر، خلال ذينك الأسبوعين لم تسر الأمور على أكمل وجه. كان الجوّ قبيحاً جداً عندما تغيب المدرّس، وبمُجرد أن صارت القاعة فارغة، تهاوى سقفها. كلّ غرف الطابق باتت مغلقة. ساد اعتقاد أنّها مأهولة من قبل وحش أسطوري. المدرسة كانت مقبرة في وقتٍ ما. لقد سبقت الأقاويل تنتشر بين الطلاب الصّغار عن تسرّب فقاعات من سُقوق الأبواب والشبابيك. وبمثل ذلك الخوف استشهد بعضهم حتّى أنّ ثمة من يهمس ويطلق صيحات فزع مُتراطمة. وميّز آخرون من خروم الباب مُهرّجاً مُعلّقاً في الفراغ مُشتعلاً مثل الفولاذ المصهور. كأنّ ريجاً تُلامسه. مُبقياً أحد الصّغار بين ذراعيه. يُفرّشخه إلى نصفين. يتلعه بوضعيّاته الممكنة، كما يتلع «طلال» شطيرة «مرتقب». ويتلهّف توقاً لفعل نفس الشيء مع باقي الأطفال. أبلغت

تخيّلاتهم غايتها؟ فمُنِعُوا مِنَ الدُّنُوِّ مِنَ الطَّابِقِ. غير أنّ دورة المياه كانت لصيقة له. الأرض تنتفخ من تحت «مرتقب». انفجر الماء كرشاش دموي. أحسّ بتصلّب عاتٍ. في مكانه يمكث هو لا يتحرّك. اعترته دعوة واجبة إلى التقيؤ. عَجِيج السّاحة الّذي يمتدّ من مكان يجهله ويصل إليه. جمر جهنّم يغلي في جوفه. تلفت من وقتٍ لآخر وعضلاته مشدودة. في طريقه-على الضّدّ قُدُماً- إلى قاعة الدّرس اعترضته مُجسّسات سوداء. اختلطت كومة من خفايا الأمور المروعة. والرّؤى المُفرّعة الّتي هاجمته أثناء خُطواته الحثيثة من الدواليب إلى القسم. تجلّى أنّ شيئاً ثقيلاً جاثماً عليه كالقِصّاص. باشَرَ بحبس أنفاسه المُتسارعة. ينام متوتّراً. يقيّظ من غفوته ينزّ عرقاً غزيراً. يهزّ رأسه ويصفعه بطرف الطّاولَة الرطبة. خُلّفت له كدمة وردية. لوي أقرانه أعناقهم. وحدجوه بنظرة مشبوهة. يتساءلون في سرّهم عن ذريعة ضيقه. له أن يقرأ هواجسهم السّاخرة. «ما الأمر؟» يقول «طلال» بلكنة مبحوحة ذات معنى. ويُغادر خطّ الكلام ما أن صار المدرّس على مقربة. وضع يده على كتفه بطبيعة تعامله. وقال مخشوشن الصّوت في

حنو «كنت نائما لم أشأ إيقاظك» يكتفي بالتحديق. رن جرس المغادرة. فانبرى في حركة انسيابية كالبارود المشتعل إلى الخارج.

كان الأبيض في عينيها قد تورّد متى رغبت الجارة في مُكاشفة «رنين» أن شقيقها كان قد اعتزم ترك ألمانيا إلى صِقْلِيّة. لقد مر بالعديد من الأشياء المُعقّدة خلال السنوات القليلة الماضية. انتقل بها الحديث إلى إنه على دراية بأشياء كثيرة. مُنذ عام «كذا» كان يُساعد الناس في غامبيا والسنغال، إنه تحدّد دائم، غالبًا بين الحياة والموت. الحياة فرع يموت فيه الأبرياء. سعى إلى تلافي رؤيتهم يموتون في البحر. الأمر الذي صقل عاطفته. وهذا كُلّه لم يمرّ دون شعوره بأنّه عالق في زوبعة من السّامة. لقد فعل كل شيء لفتح مُستقبل لهم في صِقْلِيّة. كل ما يحتاجونه، كان الدعم. أوروبا تدسّ أنفها في كل شاردة وواردة. تخلق اختلالات وترفض رفضًا قاطعًا أن تتحمّل عواقبها. ربّما لهذا السبب أيضًا انسحب حتّى الطرف النّهائي من أوروبا. أبلغني في آخر مكالمته أنّه أنقذ حياة مُهاجر. لقد كان بالفعل يطفو على الماء لكنّ الليبيين حملوه وعادوا به إلى الجانب الآمن. لحسن الحظ تمكّن من الفرار. الحارس الليبي مأجور ومُوازٍ من الاتحاد الأوروبي لمنع

المهاجرين وتعذيبهم. أوروبا تُريد الاحتفاظ بامتيازاتها وهي الآن أسوأ حتى من أي وقت مضى. أظهرت «رنين» قدرًا من الشفقة. وهذا ما كانت تتقصى عنه الجارة. أن توظف في أعماقها إحساسات الألفة الباهرة.

قالت بنبرة عطف. «وكيف حال شقيقك الآن؟»

«كان في قلب المأساة، في هذه الأثناء يتدبر أمره جيدًا، لكنه عانى»

«أمل أن يجد السلام»

جلست في نصف جلسة وأردفت:

«لقد هدا كثيرًا ومع ذلك تعرّض للتعذيب في ليبيا»

«الإنسانية عملٌ صعب تجعلنا نسأم من الأعماق»

«أشعر بالأسف من أجله»

«لأي شيء؟»

«تستقرّ زوجته السابقة مع أطفاله في سويسرا، لم يرههم منذ سنواتٍ شتّى»

«يا للمسكين»

«لقد قادهم أصهاره ضده وما زالوا في قبضة التأثير»

«ما السبب؟»

«إنها قضية طويلة، كان يُريد أن يعرف كل شيء بشفافية
كاملة»

«وكيف؟»

«أنت تعرفين فعلاً ما عنيتُ بهذا»

«عفوك، لا أعرف إلى أي شيء ترمين»

«الجميع يعرف»

«يعرفون ماذا؟»

«ألا تعرفين؟»

«أعرف ماذا؟»

«ينبغي عليك أن تعرفي»

«حقاً أنا لا أعرف»

أشاحت الجارة بوجهها، في هذا المجال ساخطةٌ. ولفرط ما
تتجاذبها الأفكار الفتاكة كانت على وشك التفوّه بأشياء لا تسرّ

البال. تُؤهلها قواها دون سواها بفعل المكائد الأسيرة من وقتٍ إلى آخر. طفحت مسحة من الكآبة على مهل. كان الظلام يلفّ حول الشبابيك متى ولّى السيّد «وزير» راجعاً إلى مقرّ سكناه مصحوباً بالضجر الذي يُعانيه في الوقت الذي كانت فيه الجارة تحسّ بشيء من الارتياح لإنجاز أمرٍ ما كره. اعتقدت أنّ لها ما يكفي من الزمن. مجيئه في هذا الوقت ما كان في الحُسابان. في حركات لا تهدأ لم يصعب عليه طرد الجارة. ما كان لديه الرغبة في الإدلاء بأي تصريحات مُباشرة. وأنّه ليس مُرغماً على الولوج في نقاشات. بدا على قدرٍ غير مُستبق من الوحشيّة في وقفته الثابتة. وشديد التوجّس. بوثة رشيقة غادرت الجارة مدفوعة بأذرع غاضبة. تُبدي كمّ شعورها بالمهانة وتُسبق الريح. «ليس في حُدود علمي أنّك تستقبلين الزوار أثناء غيابي» قالت الجدّة مسحورة بالإستياء ذلك أنّ الدردشة فاتتها. «كُفّي عن التلفّظ بالحماقات يا أمّي» صخب صوت السيّد «وزير» من الأعماق. فوجئت بعد أن عرفت حماقة ما قالت. مضى إلى حُجرته. ركضت أصابعه -بعشوائيّة وهمجيّة- بين عُقدة عنقه وحزام بنطاله. في آخر الأمر خلعت الجارة الباروكة عن شعرها والمُصّقات من

وجهها. تفحصت نفسها في المرأة. كانت صديقتها الماكرة «ريماس» التي من الريف. جاءها «طلال» من الخلف وخلص إلى التساؤل عن ماهية الزي التكري القبيح. فألجمته بإخرس.

ما كان في مستطاع السيد «وزير» أن يُفرغ حمولة غضبه سوى باصطياد فتاة ليل أخرى. ثم سقط بين الطرقات على واحدة تتهادى في سيرها. اندلعت رغبة مضطربة تصدح بنباح شرير كمخالب أسد هائج وإكتنف جسدها. يسعى للنظر في عينيها. ويهرع ليشقب الصراخ الحارق. تشنّج فتاة الليل فوق السرير الوافر. تصرخ اتركني. فلا يتركها. أنى له أن يتركها؟ سُعال ممزوج بالصعقة. تنفخ رائحة الشراب شروخه المتكدسة بالعقد التي لا تنفك بإدلاء أنه إنسان مُنحط. تفرس فيه - فتاة الليل المُكممة - أظفارها، فتخدشه وتمزقه. يسيح دمه لزجا. يمتصه بشراهة الهمهمات المُفترسة. يوقظ فيه ما بقي من الوحش النائم. يشتعل جمرا وكرامية. يتأجج البركان بأسرع من غمض العين في البئر المظلم للإشعاع النووي من الشهوات. دوامة باردة تهب حاملة العجاج لتطرد كل ذرة رصانة من رأسه. بلغ نقطة أخط من الحيوان. تنتفض فتاة الليل مُحترقة. ارتحت ساكنة. لا حركة

فيها. صار القبو أضيق من أن يدفن فيه جُثَّة أخرى. عزم على
المضي إلى الغابة قبل سُطوع الفجر. لم يكن يدري أنَّ غريمه الذي
يكون عم «طلال» يُراقبه. ما حسبَ للرصد حُسان.

قال الطَّبيب النَّفْسانِي في حيرة. «ما أمرك؟»

«إنِّي أفقد نفسي»

«هل تُواظب على أخذ الليثيوم»

يصمت ولا يُجيب. لأي شيء يهرب من السؤال؟ لكنَّ شيئاً
مُظلمًا يكتسح في العمق.

«كلّا»

«لا يُمكننا أن نفعل ما هو أفضل دون تناول الأدوية بانتظام»

حكى له والقلب يعتصره أنَّ الليثيوم أخذ له رغبته.
والنكوص عن أخذه يُفجِّر شهوة ما في استطاعه إطفائها.
يستحيل وحشاً شبيقاً تشكَّلت الحساسة والاعتباطية والجَهامة
والغلاظة في أسفل بطنه. لا يجد حلَّ وسط بين هذا وذاك.

«إنِّي أضيع»

«أخبرني عن وسيلتك بالتخلّص من الرغبة الشديدة لديك»

«لا أدري من أين أبدأ»

«زوجتك؟»

«كلّا، في آخر مرّة انتهيت فيها، نزفت بعض من أذنّها»

«أتجد معنى في ذلك؟»

«لم أقترّب منها منذ سنوات شتّى»

«أتمم»

أخفى الجزء الغامض من الحكاية. «تحوّلت إلى اصطيات
فتيات الليل واهانتهم»

«سنتقل إلى العلاج المعرفي والسلوكي»

لخص الطّبيب القول أنّ ما به يدخل تحت مُسمّى العلاقة بين
الجنس والسياسة. رجل يجد القمع لشرح وجهة نظره داخل
عائلته يتحوّل إلى السعار الجنسي من أجل إفراغ قمعه. رجل
يُمارس سلطته من خلال الكبت والاستبداد وتجويع غيره بكمّ
ما يكون الجوع الجنسي في ذاتيّته. إذ يُذل من يواقعهم، ينعكس
الإذلال طردّيّاً على الطرف الذي يُمارس معه. يسرق حقوق

الآخرين بكمّ ما تكون حقوقه مسروقة أصلاً من شريكته،
فيهرب أوتوماتيكياً إلى البغايا ليفعل بهن ما يُريد متى يُريد.
الكبت الجنسي ليس له أن يتوافق مع مصطلح الديمقراطية.
وحده الكبت يُولّد الناس المضطهدين. الاستبداد السياسي يُعيد
تشكيل نفسه من خلال الجنس.

(7)

نحو السّاعة الحادية عشرة تقريباً من ذلك الليل لمعت عيناها خوفاً. توسّدتِ راعيها على مفرش الطاولة. كانت خاملة وفي سعيها على طرد، دون جدوى، ما كان يجيش في قعر ذاكرتها. لها تصوّرٌ شديد الأثر أنّها تقفز بثقل جسمها عائدة إلى الركن النَّائي من عُرفة المعيشة. تضرب الأرض بجماع قبضتها ورأسها تنحني إلى رُكبتها. الألم يجتاح الرأس المسكين. تُعاني من ضيق فظيع. ما هي إلا هُنيئات حتّى انهارت في مكانها، غائمةٌ في خيالها. لا تني عن الأنين. العتمة لا تزال تنجلي. شرع الصباح في بادئ إنبلاجه. في ساعة مُبكرة من الغد، قُرِع الباب بإندفاعٍ. شعرت بلسع الصقيع. كان أحد الجيران يتمالك ذاتيته قلقاً في حين يتوسّل لاستعارة هاتف أرضي لبُغية مُستعجلة. قريبه الذي في صقلية سيّصل به. يقصّدها في حاجة وكان طلبه مُجاب. سلّمته إيّاه وفي صوتها ما نال منه الضنك. سوّت الكثافة الأوفير موتش لشعرها ونظرت إلى ندبة كبيرة تلفّ وجهه الأيمن. يسود حوله انطباع بالريّة. نفس الأشياء يقوم بها السيّد «وزير» كلّ صباح.

أن يرتدي قميصاً بلون القشدة. أن يشدّ حزامه. أن يُشدّد ربطة عُنقه. أن يتتعلّ حذائه ويكبس خيوطه. أن يرشّ نفسه بالعطر. وتستقبل عائلته والمدينة جنوناً خادعاً. كانوا يتناولون طعام الفطور متى عرف السيّد «وزير» بالأمر. «أي نوع من النساء أنت؟» صدح صوته وطال به الغضب في نصف إغمضة. وأنشأ يُمطرها باللعنات.

قاطعت الجدة معرفتها المحتدمة:

«هل يُخبرني أحدكم رجاء، ما الأمر؟»

مُستشارة وجّهت «رنين الملامة بينما تركز على أسنانها مُعرضة:

«ولكنّ صبري لن يمتدّ إلى نقطة إهانتني»

«ويُحك، ماذا تعتقدين أنّك فاعلة»

«لم أخفِ عنك شيئاً»

«حسبك كذباً»

بلهجتها الشجيّة قالت شيئاً من إفشاء لا يخلو من الحقيقة.

«هذا ما أعجز عنه تماماً، أن أناقش معك»

«ما تقولينه لا يمتّ بصلّةٍ إلى واقع ما حدث»

: تتألق بوهج مُضطرم

«أبإمكانك أن تهدأ؟»

«كل ما في الأمر هو أنّك ترفضين الاعتراف بخطئك»

«ليس الأمر كذلك»

«صمتك خير دليل»

وردّت واثقة اللهجة:

«أنت لا تعرف شيئاً»

يسعى للسيطرة على إحساسه بمُداعبة حزامه من خلال
صُراخه الحاد:

ومضى إلى الحتمّ كابساً عُقدة عُنقه إلى أن احمرّ وجهه. «إنني
أثنيك عن التصرّف بهذا الشكل»

كانت دُموعاً موصولة تغمر عينيها متى أشاحت بوجهها،
عابسةً. يحدث أن تحجل من حالها. وتُردّد نظرات أسي خالصة.
لم تجد من نفسها ما تُدافع عن نفسها. وما حيلتها في الردّ.
وليس لها على أي شيء آخر. أخذ الجو يركد. في غمرة تشنّجها

العصبيّ بدأ الصّبي الصّغير ينقلُ ميله إلى عدم الذهاب إلى تلك المدرسة الحمقاء بعد الآن. إنّها أشبه برجل الكهف الذي يُخطف الصغار. أدرك السيّد «وزير» أنّ الهاتف الذي عاد الجار به تمّ العبث به. الأمر الذي دفعه إلى رميه في أبعد سلّة قمامة. لم يكفّ الهاتف الجديد عن الرنين، لاسيّما في مواقيت النّوم. يكاد يكون هو نفسه كلّ يوم. ذلك أنّ الملقى به قد دُسّ فيه جهاز تنصّت.

قالت السيّدة مُصرّحة أنّ هذا النّظام عبارة عن صُنْدُق دُمى. للحيطان آذان. بدلاً من ذلك يعتمدون على الأساليب الخاضعة للرقابة، والمقصود هو خلق عالم مجنون. تحسّباً لأي غضب قد ينتهي به إلى انقلاب. ليس من الطبيعي أن نعيش على جريان الخوف وتدفّقه في مكنوننا. لذلك أي شخص مُستهدف بلون من ألوان التّبّع الأكثر ابتذالاً. ولن نتفاجأ إذا حصل لنا اكتشاف وجود مشاكل عائليّة وحتى عقليّة بسبب هذا. بل، سيكون له أبلغ التأثير على المدى الطويل. أثبتُ على ذكر ذلك على الأرجح. الجميع سائرًا على اتّجاه هذا النظام. يبدو مُحطّمًا. كلّنا مُعلّقون في الفراغ كالدمى القُطنيّة. وأعضاء هذه الحكومة في ميلها إلى الجنون في مثل هذه الأمور. إذ لا شيء ممّا نشاهده إلّا

ونشعر به في أعماقنا ضعفين. ذلك أنّ الوضع الراهن-الذي لا مفرّ منه مُشوّه-ولا يسع المرء إلا أن يصبر عليه طول أناة. هذا عيب مثل العتمة المُباغته. أتباعهم يحوزون على تجاوزات باسقة. ليس مُتوقعًا صنيع أشياء من هذا القبيل وبأدراج لا توصف في حقّنا. كيف لا يتحرّك الناس بشأن ما يحدث؟ إنّه لمُربك أن نتعلّم أبدًا حيلةً جديدة عن هذا النّظام الذي يريدون حقنه فينا. وفي الجهة الأخرى كانوا على دراية من أنّهم بالفعل على حق. في أوقاتٍ ما يشعر الأبرياء منهم بالاستياء تجاه أنفسهم. هذه الحكومة تتضاعف في كتمان على أكتاف العملاء. يُرغمون الإرهاب وبعث الضيق بالمقدار عينه. مع لمسة من التفرقة. لا ينبغي أن نستمع إليهم على نحوٍ خاص. وهذا لن يُحلّ دون عصيان.

قالت تُفضي مسحة من الشكّ وتسحب كمّ السكينة التي كانت. «راقبي زوجك، لعلّ حبله يمتدّ من هذا»
«كيف؟»

«هذه كل الحكاية»

لُبْهَةٌ أَحْجَمَتِ السَّيِّدَةَ عَنِ الْكَلَامِ كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْعَلَ أَيُّ شَخْصٍ يَضَعُ السُّمَّ. وَلَمَزِيدٌ مِنَ الدَّقَّةِ أَغْلَقَتْ الْهَاتِفَ. أَلْقَتْ مِنْ فَمِهَا قِطْعَةَ الْقُمَاشِ مُهَلَّلَةً بِهَالَةٍ مِنَ الشُّرُورِ. أَطْلَقَتْ ضَحْكَةً أَشْبَهَ بِضَحْكَةِ الْخَنْزِيرِ الْمُدَلَّلِ بَيْنَمَا تَقْرَأُ كَمَّ السَّاعَةِ الْآنَ. تَرَكْتُ لَهَا شَبَابِيكَ الظَّلَامِ مُشْرَعَةً. خَلْفَهَا، كَانَ زَوْجُهَا جَالِسًا كَالْعُلْبِ الْمُتَرَاصِفَةِ، يَعْثُ بِحِزَامِ بَنْطَالِهِ، حَيْثُ يُتَاحُ لَهُ أَنْ يَسْتَمَعَ إِلَى مَا كَانَتْ تَقُولُهُ. كَانَتْ صَدِيقَتَهَا «رِيَّاسُ» مِنَ الرِّيفِ، كَذَلِكَ. غَيْرَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الرُّهْبَةِ، كَأَنَّهُ طَاعُونَ الرِّيبَةِ، قَدْ حَلَّ فِي دَخِيلَةِ «رَيْنِ» بِمُجَرَّدِ التَّفَكِيرِ فِي الْأَنْفِ ذَكَرَهُ. مَأْخُودَةٌ إِلَى عَالَمٍ قَائِمٍ فِي أَبْعَادٍ قَصِيَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْتَمِي. كَرَّرْتُ مَا سَمِعْتَهُ لَثْوَانٍ وَلَا يَسْعَاهَا إِلَّا اسْتِضْاحُ أَطْرَافِهِ الْمُلَغَّزَةِ وَالْمَكْتُومَةِ. تَسْتَلِمُ لَوْ سَاوَسَ قَائِمَةٌ فِي أَكْثَرِ مَوَاقِيتِ النَّهَارِ بَرْدًا. كَأَنَّهَا جُبِلَتْ بِأَحَاسِيْسٍ مُخْتَلِطَةٍ. عَمَّ صَمْتُ لَمْ يُعَكِّرْهُ حَتَّى صَوْتُ الْجَدَّةِ. «تُخْفِنِ مُحَادَثَاتِ الْهَاتِفِ مِنِّي كَذَلِكَ» تُفْرَطُ الْجَدَّةُ فِي الْهَذَرِ وَكَانَتْ أَكْثَرَ تَطَلُّبًا.

لَمْ تَكُنْ حَادِثَةٌ «مُرْتَقِبٌ» الْأَخِيرَةَ، بَلْ تَكَرَّرَتْ مَرَارًا. تَضَاعَلِ عَدَدُ الصَّغَارِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الدَّوَالِيبِ. كَانُوا مُدْعَاةً لِإِحْسَاسِ الْمُبَاغَةِ. يَتَعَلَّقُ نَصِيبُ الْوَاقِعَةِ هَذِهِ الْمَرَّةَ بَفِتَاةٍ تَغِيَّبَتْ

عن الفصل لأزيد من نصف ساعة. عادت مُنظّنة، مُلتهبة، مُمزّقة السّروال حدّ مُنتهاه. تنفّسها مُتقطّع. بدت فيها كدمات وعليها علامات الهلاك. ثمّة من حاول أن يعتدى عليها. كمّ أبكاها. لشدّ ما خوّفها. يتلاشى وجود المُعتدي إذ بقدم حارس المدرسة. تتجمّع وجوه الأطفال في تدافع صقيعيّ حولها. يُمسكونها كيلا تهوي، في حين كانت شابكة ساقها. وكطبيعة الأطفال، لا يُفلحون في إكّنان ما حصل لهم. منذُ ذلك الوقت - وتلك الحادثة - تغيّبت الطّفلة عن المدرسة لأشهر متتالية. تجاوز الكبار انفعالاتهم. ولّت راجعة كالبهاء على قدر من السّمنة وأثقل سنّاً. يندثر جمالها إذ يستحيل قُبْحًا. وقلبها مُتقيح. تفعل كل ما في وسعها لكي تبدو عبثاً كما كانت.

فصل السيّد «وزير» الرّأس عن الجسد. استخدم مشرطاً حادّاً ومُدبباً لتقشير الجلد عن الوجه من أسفل الحنك. وبشغف جريح ينبض بالإثارة عبّ حوض الاستحمام بالماء وملح النطرون الجاف والقرنفل المطحون. أنزل جلد الرّأس لسحب كل بقعة ماء بداخله. وتنشيف الخلايا من الزيت تشييفاً تاماً. ومضة رعد مُفجعة تهبّ في جسده. مُشتّت الذهن يصبغ جلد

الرأس بمادّة الراتينج السائل لتغطية كامل مسام الجلد، ولمنع التأثيرات الخارجيّة مثل الرطوبة وتسَلّل الحشرات الكريهة. قطعة مُتوسّطة الحجم من الخيش حول الفم من الداخل. ثمّ قام بخياطته لمنحه مظهرًا مُطابقًا. كان يطنّ للموسيقى المرعبة المُنبعثّة من الراديو. في الضبابيّة الحالكة يُلصق منجزه في بورترية أبيض ويُلَوّن العيون الفارغة. عويل المتعة ينسحب من حلقه. يفرد ذراعيه كما لو أنّه يطفو فوق بركة دمّ. كان واثقًا من أنّه في مُستطاعه أن يخلق الفنّ بالقتل. كان فيه سعادة ناقمة مُذعّنة. وجهه يرعف الحقد والعرق. يراقص شبحه من خروم النّفس. يغلبه شعور أنّه مشدود إلى ماضٍ لا ينشقّ عنه.

(8)

كانت مُنحنية- إلى الأرض المعشوشوب- تجعل الأعشاب المنفوخة أضال حجماً. تنظر إلى اليعاسيب والزناير تُحوم حولها. وصوت آلة التنظيف في ذلك الصباح هدير. ترضخ إلى ألم الظهر بسهولة. هزّت رأسها صُعداً نحو الغيوم وعُلّوها. أهو تردّي الشعور بالطاقة؟ أو التماسك الطويل والهين حتى تهالكت بلا جُهد. ليس ثمة ما يدعو إلى الصمود تماماً بعد هذا الوقت. لم تعد مُتكافئة على حافة السكّين. كأنها على الرmq الأخير. تشعر أنّ عظامها قد عُجنت عجنًا. كان لسقوطها ذلك الصدى الذي يجيز بفراق الكون الوجودي. كان آخر شيء رآته يتبدّد، الجدة وقعقتها عن أي شيء حلّ بها. سألها طبيب العظام عن موضع القلق. إنّه ظهري ومع ذلك بالكاد استطاعت أن تُقدّم شروحًا خجولة عن ألمها حتى إنّ الناظر إليها بنظراتٍ ثابتة يعتقّد لفرط تعبها أنّ أمواج الموت تتلاطمها. ومع ذلك، ما قالته لا يصف عمّا بالفعل تحسّ به إذذاك. إنّ ألمها الحقيقي طيّ الكتمان. ينال منها في المواراة. أبداً لم تكن في موقف مُماثل.

«لن أقبل تفحص التحاليل بخلاف المكان الذي أرسلتك
إياه»

قال السيّد ”وزير“ مكان ”رنين“. «إنّ الأمر يتعلق بالتأمين»

قال وقد كان كمن لا يعنى بمشاكل الآخرين:

بدا غريباً جداً. «أنا أثق فقط في المخابر ومكتب الأشعة الذي
أرسلتكم إليها»

كانت أوجاعها تتدفق مثل شلال حارق. يصحب عيونها
مسحة حُزن. وليس لها الشكوى من أي شيء. لون قسائمها
مُزرقّة. تحت الخضوع الأكيد، أُعيدت جميع التحاليل الملحاحة
ولم تكن حصيلتها تختلف عن تلك التي أُجرت ولا لبس فيها.

صرف لها عقاقير وأجبرها على شرائها من متجر الأدوية
الذي يعرفه. «لديك بعض الروماتيزم»

قال السيّد ”وزير“ مكان ”رنين“. «إنّ الأمر يتعلق بالتأمين»

قال كمن يُديم الألم مكان إزالته. «أنا أثق فقط في أدوية
الصيدلية التي أرسلتكم إليها»

لم تشعر بأي إمتثال لمشيئة الشفاء. وآمالها مُدلاة. وفي الأغلب طلب الطَّبيب ماسح ضوئي للظهر. وذكر أنَّها، بالإضافة إلى البرد، مُصابة بتقارب الفقرات السُّفلى. على طول إمتداد أخذ الأقراص لم تشعر بلذَّة الشفاء. دعى الطبيب إلى إجراء الرنين المغناطيسي.

قال يسلكُ سُلوكًا جافًا:

«أنتِ مُصابة بعرق النسا»

«أنتَ لا تشرح واقع مرضي»

«أنا أكتشفه فحسب»

«من خلال الأخطاء الطبيَّة؟»

«وما ضير ذلك؟»

«أصبحتُ ضعيفة ذلك من الأدوية الخاطئة»

«لن يحدث لك شيء»

بدا صوتها أقلَّ إمتلاءً. «ينقصك الجدِّيَّة في التعامل»

«أعتقد أنَّك موهومة»

«ليس إلى هذا الحدّ»

«ما أدراني أنا؟»

«أما كُنْتَ تدري؟»

«كلّا»

«هذا إقرارٌ مُهينٌ»

«لا أعرف ما هو مرضك بالضبط، لديك الكثير منها»

«سيّان عندك إذا تعافيت أو متُّ»

أحالتها إلى طبيب نفسي. «لا أقدرُ شيئاً لأجلكِ»

تدفّق ردها الحِمَم. «أنا جادّة فيما أقول»

في وثبة سريعة خرجت كشعلة تُقدَح من الغضب. مُخلّفة جلبة عارمة. وفي آخر الأمر أضحت هذه الأخطاء الطبيّة تُرعبها. وحالتها أشبه بضبابة ديسمبر. شعرت كأنّها مُدعاة للابتزاز ما أمكن. وأنّها ضعيفة تحت وطأة المرض أسهل ما يكون. وليست سوى مريضة بلهاء. وأنه محض شخص شره للمال. كانت أكيدة في إعتقادها. وأشياء كثيرة من هذا التفكير. الأمر مقصود. ومتى ولّت راجعة لتأخذ ملفّها الطّبي، بالصدفة سمعت مكالمات تُدار بين السكرتير ومركز الأشعة ومركز التّحاليل ومصرف

الأدوية، ذلك أنّ الطَّبيب يبتغي قِسْمه من عوائد هذا الشهر بعد أن أرسل ١٧٠ مريضاً وصرف الأدوية الخاطئة لـ ٢١٠ شخصاً وبعث ١٦٠ حالة إليهم. أبدلت طبيب العظام. فقدت طاقتها حتّى للردّ عن الآخرين. ومع ذلك، أسرت طبيب العظام الآخر أنّ كلّ هذا بدأ منذ عدّة سنوات. كأنّها مُست بنار الموت. كانت الجدة هي التي اعتنت بالطفل من ولادته. ليس رائجاً أنّ زوجها كان سنّداً لها. أُصيب بنزيف شاحق وتوفيت. لم تبلغ من العمر ثلاثين عاماً بعد. وبقدرة قادر انتزعها الإطار الطّبي من مخالب الموت السّاحقة. كانت مُعجزة القدر على حدّ قولهم. لقد دخلت في غيبوبة. مكث الطفل دون اسم وغير مُسجّل. عادت من الموت ولم تكن بمفردها. تبعها شيء مجهول ومُظلم من بوابة الموت التي فتحت من نصفها. لا ينيّ شبح ما حدث لها يُطاردها. لم تتردّد عائلتها في لومها على جعل هذا الشيء الشرير يُرْفرف خلفها. الإنسان كائن ضعيف. حدّد لها الطبيب اختبار كثافة العظام. وكان توقّعاً أنّها مُصابة بهشاشة العظام. وصف لها الكالسيوم وفيتامين د٣ على شكل حُبوب تمصّها كل صباح. أكتونيل قرص أسبوعياً لخمس سنوات. يُقلّل هذا الدواء من

مُعدّل ارتشاف العظام، من خلال التأثير على خلايا ناقضة العظم، ممّا يُؤدّي إلى إعادة تمعدن العظام، ما أمكن. عليها أن تمشي لمدة نصف ساعة مُوجعة لئلا تصلب أطرافها.

قالت الجُدّة مُشيحة بنظرها عنها. «هل ستمثلين إلى الشفاء؟»

ردّت مغلوبة على أمرها. «لا يحلو لي الشفاء»

«فلا تحزني»

كان لصوتها ذلك الأسى الراحل إيّاه. «لن أشفى وحسب»

«إنّه لأمرٌ مؤسف»

ردّت أمارة على إنهاؤها الكامل. «ما باليد حيلة»

«كل ما تمرّين به سوف يمرّ»

«ذلك مُنتهى ما تبقى لي من الحياة»

«حياة الإنسان كلّها، بدايةً وختامًا، من المعاناة»

كان الطّفّل مُتسوّلاً إيّاها في خفقته المجنونة حتّى تُناولهُ حفنة من النقود. مسكون بضيق يقبض أنفاسه الشائكة. يُريد شراء بعض الفواكه الجافّة والشوكولاتة. فوق الأرجوحة يقفز

من خلف إلى الأمام. يطير وسط طاحونة كالفقاعات البرّاقة والمرشوقة. في السكون الجامد يُحاصره المترصد بالألغام الأكثر حذقًا. يصيرُ سكنًا، صلبًا، لا حركة تندّ عنه. كانت «رياس» تضغط على كتفيه مزرعة بالظلام-يُحترقها الغبار- وتمدّه بلوح شوكلاتة. بالتودّد المُقنّع ترسم، تلتصق، وتلتحم. صوتها الشوكي يتدفّق شوقًا لتقصّي سرائر العائلة التي أضحت مثقوبة كشهقة موت. تنتظم أنفاسه ويحكي لها هذا العنقود كقط مسعور شريط آلامهم الباكي والتلاشي. فضلًا عن الكدمات في قلبه.

لم يبدو من العلاج جدوى. وطريقها نحو السّلامة ليست إلا ضوضاء وحماقة. ولا شيء على الإطلاق. ضاق بها المرض. طوّقتها الأعين الرّاصدة. تلهث بوحشيّة. تتصفّد عرقًا. تناهى إليها زيادة صاحبة، تصل من الفناء الخلفي. الباب يُخبّط وكانت تتخبّط. قلبها يُلطخ. والجدران تُقرع لحظات مُرنّمة، كأجراس الكنائس. ثمّة شيء يرتع.. يسعى إلى الولوج وتحقيقها بلا حساب. فترامت على الباب مُقيمة به. ترصد الحركة المباحّة كخيوط مكهرب بلغ أثقل ذراه. الباب يُختلجُ بغضب البركان المتواري خلفه. مُدركة أفواج الظنون أنّذ أنّه ما باليد حيلة.

سَيُقْلَعُ ويحوز منها الشيء المخفي مثل قصفٍ عنيف. لكن ذلك الخوف، بل الفزع، دفعها تتلوَّى إلى الدَّور العلوي بملء جُبنها وقرفها. قطعت الطريق إلى غرفتها قفزاً. تختفي في قلب الخزانة، كما الأطفال. هفّ هف الشيء في أثرها. وقبّع مُتابِعاً بعثرتها. ليس لها أن تتصدَّى له. لا تجيد التَّعامل مع المخاوف. أجادوا بأذراعهم المبتورة زرع بُذور الرَّعب فيها. صرخت ألماً مُتابعة ركضها نحو عيادة طبيب العظام. وينبث منها أجيج لشواظ النَّار. في هياج عظيم أحالها الآخر إلى طبيب نفسي على أساس أنَّها مُتوهِّمة. ارتأى أنَّها تجعل من نُدفة التعب مرضاً. أمّا هي لم تكن، من جهتها، موهومة. أو أي شيء آخر من أمراض النَّفس. دلَّ التحليل الَّذي تَكَرَّرَ به طبيب الأسرة أنَّها لا تُعاني من الوهم، ولكن من إختلال هرموني ذلك من النَّزيف واستئصال الرحم. صرف لها كلياستون ١٠ / ٢ وهو دواء لإعادة التوازن الهرموني. شقَّت طريقها إلى الشفاء. واسترجعت ألقها وحيويَّتها. داومت على سيادة البيت نيابة عن الجدة.

تعزفُ الحكومات معزوفة قدرة، من أجل التسلية. لهم أن يرتكبوا أي شيء لحيازة قدرٍ لا بأس به من مُتعة تطلُّ على تحطيم

طاغ. إذا كان بإمكان الجميع التفكير في الأمر مثلنا. متى يمرض أحدنا، يزُلُّ الطَّيِّبُ في التَّشخيص ونصعد نحنُ على متن سفينة أدوية لا نتمالك فيها تفكُّك ما يحدثُ في جوهرنا. ينسجمون مع الأطباء لقتلنا بالعقاقير التي لا أساس لها نظير رحلات ومؤتمرات وفوائد أخرى. أنَّى للطبيب أن يهَبَ إيقاعاً مُطوّلاً من الأدوية المُغالطة دون أن يشعر المريض بالشفاء، ثمَّ يحصل له اكتشاف سوء تشخيصه؟ ذلك أنَّ الطَّيِّب يتبنَّى ترتيبات مع مصارف الأدوية للتَمَلَّص من العقاقير التي دنا تيار انتهاء صلاحيتها. إنَّها عمليَّة مُشينة ومُنْهَجة فيها الكثير من المخاطرة بنا. يُلقون بنا واحداً تلو الآخر في التهلكة. ذلك الخداع يُزاولونه ضدَّنا في مُطلق الأحوال. وكل ما علينا فعله هو الالتفاف على الخداع، وعدم الانجرار على خلفيَّة التَّشخيص الأوَّل للطبيب، ذلك يُربِكُ قسمًا من صحتنا. نخدع الطبيب بأننا نأخذ الأدوية دون أن ندرك الشفاء. أن يخدعنا الطَّيِّب فنقوم بمُخادعته، ألا يكنى خديعة الخديعة. لن يتكبَّدوا الأذِيَّة النَّاشئة عن ذلك. أعرف أنَّ هذا التفكير أوسع من المنطق ويفوق التوقّعات. كأنَّها خُرافة. لكن ذات يوم سيتضمَّن فيه الحقيقة ويتعيَّن عليهم الرُّجوع إلى

الحسابات. هذا ما بلغني عن الذين خاضوا تجاربك. ثمّة أطباء شُرفاء وثمّة من ينجرّف في سيادة المبيعات هذه. قد يأتي بنتائج عكسيّة عليهم إذا شذّوا عن أهواء ميمّة الحكومة. الأشخاص الذين كانوا مرضى وخاضوا خبراتك لم يعد لديهم دفاعات مناعيّة ويلتقطون جميع الفيروسات من حولهم. يُسوّون أشياء بمواد مُسرطنة كذلك. ثمّة برنامج قاموا بإنشائه لأصحاب السلطة يُنذرك من خلال قراءة رمز شريطي. يُومئ إلى شراء مواد صديقة للجسم. ليس لدى عامّة الناس لمُحرّكات ضمنيّة. الطعام والشامبو ومعاجين الأسنان والعطور وكل شيء آخر مُشتبه بأنّ فيها مادّة مُسرطنة، مثل ثاني أكسيد التيتانيوم على شكل جزيئات نانوِيّة وأملاح الألومنيوم والزيوت المعدنيّة وغيرها. حتّى مياه الصنبور متسخة، ألا أنّها مياه الصرف الصحي المحليّة. إنّها حرب خفيّة مُقنّعة. يقتضي القضاء على كثير من الناس. في حين أنّ كل هؤلاء الرجال الحكوميّون الكبار في دعة. لا يتمّ تضمين الرّتق في رُسومهم. بدلاً من ذلك يُمولون المشاريع التي تسوء بالبيئة لإحداث كوارث طبيعيّة، يتأذى ذوو التكوين الواهن من الاحتباس الحراري والغازات السامّة. فسيتقلّ عدد الناس على

هذه الأرض. يُثقلوننا بخط شقية. هذه القصة لن تنته. نحن نعيش في عصر مُظلم بأبخص الأثمان وأعنف من ذلك. لن نعي إلا بـإنفتاح كِبَد الحقيقة، باب الشر على مصراعيه في وجوهنا. وبما أن الباب به ثقب صغير جداً تتسرب منه بعض الشرور، يجب أن نتعايش مع أقل قدر مُمكن من الضرر في ظل هذا الخداع الممنهج. لا بُدّ علينا أن نتغابى وسط القطيع. وربما يجب أن نتحاشى القطيع ذلك أنه منشأ الحاجة السالبة والقصور. كما ثمة بيوت شتى خالية، وذلك من زوال أهاليها من الوجود، حيث كانوا بلا عائلة أو أقارب، فقد تلاشوا فجأة. أدلّ لك بالبيئة العديد منهم لجأ إلى العيادات والمصحّات الخاصة لإجراء عمليات طارئة، ولم يخرجوا. ماتوا أثناء أخطاء طبية وأزيلت أعضاؤهم السليمة. خلّصت «ريماس» من القيل والقال جذلة، وفيما تُغلق الهاتف مسكونة بـأماكن من الشرور معست الخيط الموصل بالكهرباء. مشفوعة بـقهقهات لا تتالكها. وباقه من الظلام.

والى «مُرتقب» و«طلال» أن يجلبا لوح جُومانجي وينتندو إلى بيت الأهل المهاجرين للعب فيه. كانا يُصغيان بين آنٍ وآنٍ

إلى ضَبَّةٍ وَلَغَطٍ. وفي مرّةٍ من المرّات يطرقُ سمعهم صوت
سُعالٍ مُفْرَطٍ مأتاه من الغُرف المُقفلة. وَلَّى «طلال» فارًّا نارًا
حامِيَّةٍ وفيه ملامح الموتى. كان «مرتقب» شخصًا ما أن يرتاع
حتّى تضيق أطرافه ويأخذ في التعرّق مُنزَوٍ. نشب سُعالٌ يتفكّهُ،
تلاه ضحكة شرّيرة، فاسدة وخافّة. مثل لسان ثعبان يتخفّى في
الهاتف، يتحيّن الهجمة المُتفجّرة. رُجّ الباب المغلق عتياً كشلالٍ
رجراج. استيقن «مرتقب» حذفه الدّاني. وبئس مصيره. عيناه
تغوران. لم يتوقّع أنّى انطلق مُنبعثًا صامتًا كالصُدفّة المُباغّة
هاربًا. جُرّم بالتخايل وأنه أصاب «طلال» بشائبة التخايل
كذلك، ذلك من لعبة جومنحي. مرّت فترةٌ مُحتصرة، هداً فيها
الخوف وعادا ليستتمّ الفلقة الباقية من اللعبة، حيثُ وجدا في
الحديقة قطعاً مُلقاة برؤوس مخرومة وبدون أعصاب. صبّ
بالحادثة على الثعابين التي سرّحت من الغابة. بسراً بمعرفة
أنّ الأفاعي لا تصل حتّى إلى الطّريق الرئيسي وتقتلها القطط.
تُخصّ الهرر بوافر العناية من حيث المأكّل والمشرب كي تمهّري في
تأدية مهامها ضدّ الثعابين. كان اليوم الَّذي وجدا فيه الشبايبك
ذات الأصفاد الحديديّة المتينة مرفوعة إلى الأعلى من نفس الغُرفة

المُقْفَلَةُ وَالَّتِي جَاءَ مِنْهَا السُّعَالُ وَالضَّحْكُ الشَّرِيرُ، مُفْزَعًا. قُذِفَ التَّبَكِّيتُ عَلَى الْمُتَسَلِّلِينَ. كَانَا عَلَى نَجَابَةِ ضَمْنِيَّةٍ أَنَّ الْغُرْبَاءَ لَا يَدُ هُمْ فِي هَذَا.

أَخْبَرَهُ الطَّبِيبُ النَّفْسَانِي أَنَّ اضْطِرَابَ ثَنَائِي الْقُطْبِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَدُومُ مَدَى الْحَيَاةِ. سَيُنْصَبُ جُهُودُهُ لِفَهْمِ الْعَوَارِضِ. لَا بُدَّ مِنَ الْإِنْتِظَامِ عَلَى الْأَدْوِيَةِ لِكِفَالَةِ مُوَازَنَةِ مَزَاجِهِ وَمُكُوثِهِ هَادئًا. الْإِمْسَاكُ عَنِ الدَّوَاءِ فِيهِ انْتِكَاسَاتٌ لَا تُحْمَدُ حَصِيلَتُهَا. الْقِسْمُ الْآخَرُ يَعْتَمِدُ عَلَى الْمُدَاوَاةِ النَّفْسِيَّةِ. وَكَوْنُهُ أَبَى الْمُعَالَجَةِ الْعَائِلِيَّةِ فَسَيَكُونُ ذَلِكَ فَرْدِيًّا. تَنْشَأُ هَذِهِ الْبَرَامِجُ عَلَى ثُبُوتِ التَّنْضِيدَاتِ الْيَوْمِيَّةِ كَضَبِطِ مَوَاقِيتِ النَّوْمِ، وَمُتَمَارَسَةِ الرِّيَاضَةِ، وَالِامْتِنَاعِ عَنِ الْمَشْرُوبَاتِ الْكُحُولِيَّةِ، وَعَدَمِ تَنَاوُلِ الْوُجَبَاتِ السَّرِيعَةِ، لِمَا لَهَا مِنْ تَحْوِيرَاتٍ مَزَاجِيَّةٍ عَنِيفَةٍ. سَلَّمَهُ الطَّبِيبُ جَدُولَ أَعْمَالِ أَبَانٍ فِيهِ بِإِيْجَازِ طَبِيعَةِ الْمَرَضِ بِرَقْمَتِهِ. اِلْتِمَسَ مِنْهُ أَنْ يُحَدِّدَ عِدَدَ الْمَرَّاتِ الَّتِي يَتَحَوَّلُ فِيهَا مَزَاجُهُ وَكَيْفِيَّةَ إِدَارَةِ الْمَوَاقِفِ الْمُرْعَبَةِ. أَيْضًا، يُعَدِّ تَلَاْفِي الْإِنْفِعَالَاتِ أَحَدَ الْأَرْكَانِ الْأَسَاسِيَّةِ لِبَدءِ الْعِلَاجِ. أَتَى إِلَى ذِكْرِ السَّادِيَّةِ الْجَنْسِيَّةِ كَلَوْنٍ مِنْ

ألوان السياسة السائدة. يجب ألا يرضخ لمثل هذه الأهواء التي تُقلّل من شأنه.

«ينبغي مُقاومتها والصدّ لكلّ ما يُحاول التضخيم منها»

علّل له الطّبيب أنّ سراديب العقل النّفسية كامنة في اللاوعي حول التجزّأ والتشظّي الذي عاشه الفرد، وكان سبباً للطّي في حُلْكة الذاكرة لعلاج الحالات التي لم يقدر حلّها. تبقى محبوسة إلى أن تتجلى من خلال الانفلاتات وبشكل لاواعي. إدّعاء معرفة الإنسان لذاتيّه ليس إلّا إختلاق. تظهر صورة الإنسان الحقّة خلال التّضالّات التي يُواجهها والتي تفلت من سيطرته. وإنّ زلّات الإنسان أثناء الغضب أو المزاح أو السهو تُعدّ مُجسّماً بالغ الصغر ممّا قيل آنفاً. ولإعادة بناء هذا الكائن الإنساني الفضفاض، من الضروري الكشف عن اللاوعي الذي تكمن فيه النزاعات ليتفاعل مع الوعي ويجد العقل توازناً بينهما. لا تقتصر المتعة أو اللذة على الجنس السادي لتلبية الإنجرافات اللامقبولة فقط، بل على حب الذات، أي الرعاية الذاتية الفائقة، والعنف، والقسوة، والمراقبة، والتهرّب من المسؤوليّات، ونشر البلبلة، والشجار، والقتل. وكلّ هذا يقود الإنسان إلى تلاشي نفسه دون أن يُدرك ذلك. بقدر ما يتعلق هذا الإنسان السادي

بیانات الواقع الاجتماعي لیظهر بشكل معقول، بقدر ما تكون
 مُراساته لنزواته بطريقة غیر معقولة. إِنَّ الأنا الأعلى لیس سوى
 نتیجة لسلطة الفرد على الفرد. وهو الوسیط بین ما قبل اللاوعي
 والوعي. والأنا الأعلى من منظور آخر یُمثل تحقیق مطالب
 الأشخاص ذوي القیادة العلیا. وما قاله الطیب جعل السید
 «وزیر» یتذكر الوقت الذی وقف فیهِ مع مطالب رجال السلطة
 بفتح أبواب فندقه لإشباع أهواءهم. زاید الطیب أن هذا
 الموقف ناتج عن تصرّفات عنیفة كان لها السادی هدفاً سیراً.
 كشف السید «وزیر»- فی حین یعصر حزام بنطاله- أن والده
 السیاسی كان یشرب ویشرب. ثمّ یتلذذ بإذلال والدته أمامه.
 ناهیک عن التهمیش والقمع. كان یخلع حزامه ویصلبهما.
 قوّة لا ردع لها تحکمه. بدأ شریط الطفولة ینضح من شقوق
 الذاكرة المعتمة. من هنا نشأ شعوره أنه دون فائدة. خرّ مُحبطاً
 من طاقته والمدينة بأسرها. شعر بنزعه لأن یبکی أكثر ممّا ینبغي.
 كان الجرح المفتوح یفجّر الألم. بدت حیاته عُقود من العذاب
 الأسود. ویجمد لسانه فجأة عن اللغط. كأنّ رأسه سحابة تنوس
 فتذوي حث الصمت والحطام. یمکث مُتصبّاً یتأمل السماء
 التي ضُربت بالغيوم.

(9)

تدفّق جدولاً فجّر واقعة هزّت أركان المدينة. مثل مغنطيس جذب أسماع الناس المُشرّبة. حارس المدرسة يلتهم الأطفال بقاعات الطّابق المنكوب مثل عنكبوت مُتوحّشة. لم تكن الوحوش الخُرافيّة تسكنها، وإنّما الوحوش الأدميّة فخّا. خُفّضت عُقوبة سجنه إلى أربع سنوات ذلك أنّه كان قوّاداً للحزب الحاكم. سنّت «رنين» سكاكين نظراتها المُدبّبة إلى «مُرتقب» و«طلال»، تغتالهما بتفريط الهزّات.

«أفعل بكما شيئاً»

«كلّا»

«أهذا صحيح؟»

«بكلّ تأكيد»

«شكراً لك أيّها الرّب»

ظلّ «طلال» على سكه للصمت الأرعن كعصفور راعش. حدّثها عن أشجانهِ الشّرسة المحشوّّة بالتحديق. نظراته مغروسة

مجمرة حتّى القلب وضاجّة كطبل. كصغير ناقوس ظمى مُستهلكًا. من خلال دهاليز الوجود المتوحّش مع هذر الخوف يُحاول قريبه المفترس أن يفعل أشياء له. شهبانًا مُقرّفاً يلحق به فاقع النّقمة. ويُشهر عبثًا أسلاكه المكهربة.

بالكاد أدخلت نفسها بين ثيابها. مَشَطَّت شعرها -وعلى قِصرِه- عجزت عن إتيان البقية الباقية. وضعت بعض المصل لمنحه سُطوعًا. مسرحيّة السّام العارِية تُعاد كلّ صباح. فقد تألّبت عليها الأيّام. سلبتها إرادتها. والمرض اكتسح مساحة لا بأس بها من سكّينتها. وسنّ لها قوانين ليس لها الحياء عنها. لم تروقها نفسها، إذ كان فيها أمارات التّعب وليست في قنّة بهائها. كانت مُشتعلة كالأنوار المنثورة وما عادت، ذلك أنّها فاقدة جذوة الحيويّة. حسبت أنّ هناك من يرصدها من خلال المرآة. يجدجها بنظرات لولبيّة. وتسلّل الضباب عبر الآذان الصاغية. يهفُّ حبّلها والوسوسة المُمتدّة. مُجيلة نظرها إلى الأركان المُشرّبة. هواجس تشدّها، وأخرى تردّها. تقرّر منها أن تأخذ حذرًا من أفكارها، حتّى نفسها. وطارت مثل أجنحة كاسرة. تسيح مُتوعّكة بين شوارع المدينة. تحسبُ لكل خطوة حسابًا.

تلتف إلى الوراء. تبحث عن شيء يُعضدها. لا تُبدي مشاعرًا. لا يترك الإهتزاز أركانها. مخاوفها الطويلة لا تنتهي. تحسست أذنها والنذبة التي خلفها لها السيد «وزير» أثناء أداء واجباته الزوجية في وقتٍ ما. ضربها العطش. حلقها كقطعة ليمون جافة. تنكش شعرها. حتى الصمت سخط في وجهها. تدبُّ في أحطّ الطرقات التي استحالت إلى مُستنقع مُتحرّك يبتلع السّاقط فيه. اصطدم بها شخص يحمل لوحة عليها كتابات: «يتزوَّج المرء في النهاية من الشخص الذي لا يفهمه ثم يقضي ما بقي من عمره مُحاولاً فهمه»، فريدريك باكمان. هبّت سهوك من الرياح. ولم تعد تلتفت إلى الوراء. أسى أن تكون في حالها آسنة مُعلّقة بخيوط المُهرّج. كانت مُستوحدة. أضحت باحثة عن مُلاقة أحد. ومع ذلك، ما من شخصاً يُمكنها الرُّكون إليه، عدا البحار. تصل إلى حُدود شاطئ المنشية. كان خاليًا من المصطافين. وقفت فوق المرتفع الرمي. لو تعرّفت على هذا البحار من ذي قبل لكانت تزوّجته مكان السيد «وزير» وأنجبت نصف دسّته من الأطفال ولنامت غير آبهة بالأمر على أصوات الأمواج ورائحة الأسماك ونعيق النوارس لا أكثر. والأكثر رجحانًا أن القارب لا ينتظر

المُتردّد، ومع ذلك كان قد يغيّر مجرى حياتها إذا انضمت إليه سابقاً. كانت هذه الفكرة في أعماق فحواها. بين آونة وأخرى يسترق البحار النظر ويغافلها من الخلف. لم يفقد شيئاً من حسّ الدعابة لديه. هذا من صميم طبعه. قرأ التيه الناطق من عينيها. تنكمش كوردة ذابلة. وما كان لأحدٍ منهما قادراً على النطق بكلمة. سألته عن شأنه.

قال على محمل الهزل ورمى حجراً على سطح الماء. «ليس ثمة ما أرويه عن نفسي»

صوت يُشبه بداية البكاء. «أشعر بالضيق دائماً»
«ما الأمر؟»

«لا يُمكنني أن أفهم نفسي ولا هذه المدينة»

«حاولي ألا تنغمسي فيها كثيراً»

«لم أفهم»

«أطلقني عبستك فحسب»

حدّثته بما جرى. «إنّها بمثابة بئر مُظلمة تبرز ضرورها لنا»

«سأتكلّم معك بصراحة من يخدعك خادعيه»

«مدينة مُربعة تسكن داخل الزُجاج»

«هذا شيء لا يصحّ ذكره، هنا لا نتصر إلا بالخديعة»

أضاف:

«يجب أن تجعلى من شخصك مُحادة»

كان المدّ خفيضاً ومنسوبه لا يعلو. تقرأ البحر الراكد ولا شيء يُلائم ما يعتمل بداخلها. أمعت النّظر بالقارب. طرقها الضجر مرّة أُخرى. الفكرة واحدة. والتجربة واحدة. وتكرار حدوثها خديعة. كان لديها بعض المآخذ حيال ما قاله لها البحّار. لا تجد فيه عزاء. هل كانت واضحة فيما تقوله؟ حول الاقتراب منها أكثر ومُراضاتها بضمة حميمة وسميكة. لا يشعر بأي حرج. أعرضت عنه مُهتاجة وغير واثقة. كيف أمكنها أن تفعل به ذلك بحق إله السّماء؟ لا يرى دافعاً من صنيعها. تعاظم ارتياها بأن يكون واحد منهم. لعلّ في قادم لحظاتها خداعها الخالص، كذلك. «ريباس» زرعت في دخيلتها سواطير الشكّ المحمومة. ألم تُطوّقها بتبيان حقيقة أنّ تناثرهم في كل الأمكنة؟ ولعلّها تكون هي الأخرى من ضمنهم. تُواكب مجرى الخديعة وتنعطفُ

عن البحّار. خطر ببالها أن تهرب. تتلفّت من أن يتبعها وتسعل خوفاً. من دون سابق تفكير سقطت نحو البيت سُقوط السّوط والعصا والهرّاة. ألقت الأكياس في المطبخ. الجلدة تُسيّعها بنظرات كالمنشار المهّتاغ. وممرّ الحّمّام-الّذي فيه أقدامها-تسرح فيه كالأفاعي. ضاقت عيناها-مشدودة بترّاخ-باتّجاه مرآة الحّمّام في تفكير. وكان من في المرآة يحدّثها بشراً بالتلميح والإشارة عن أنّ زوجها مشكوك في أمره. لا يني من في المرآة عن تغليب صوته. يصرخ بلسانه الدودي في مُستنقعات السّحالي والضباب الأسود. يُرخي عليها لوثته. وكانت «رنين» في طويّة نفسها تلتزم الحذر. تستحيل شرياناً يرعد نرف سنّواته. ولّى الضّياع يسكنها فقّاعة صابون طائرة وأعصابها عارية. أقبلت عليها الجلدة، فوجدتها مطعونة بصوتها وآهلة بالتوقّد مثل الأسلاك الكهربائيّة المتراقصة.

تكلّمت على نحوٍ زادت فيه المطبّات:

«ما الأمر؟»

حسّمت الموضوع بلهاء، فاستفاضت منشورة من الزجاج المسحوق:

«عقد المرض فكري، وأثلج دوافعي»

مشت بها الجدة بخطى مُتَّيِّدة إلى الصَّالون حيث تمددت فوق الكنبه والخوف يملِّكها. كان جسد «رياس» الفيزيائي غاية في الرعب. تُمارس من منزلها الإسقاط النَّجمي. هيأتها النَّجميَّة تراقص بين مرايا بيت «رنين». تتفحصها بعيونها الماكرة تفحصاً يُفزعها. تجتذب تفكيرها وتشده إلى بحر الرية والوسوسة. تراقص كسمكة قرش كاوية. أيّ إبليس يمتلكها. شاهرة قرناها، قرنيّ الشيطان الآثم. تفحّ فحيح أفعى يثقب في الأسماع. تملكها تملك السيّد للعبيد. تكاد لا تُصدّق نفسها بأنّها بمثل هذه البراعة.

قالت «رنين» أكثر ممّا تقصد:

«كان آملٍ واهٍ»

حملقت فيها الجدة، واجمة:

«عن أي شيء تتحدّثين؟»

وطال بها الشرح. «أملي، أنا»

جعلت الجدة تُنعم النّظر فيها مُسبِّلةً عينيها:

«ما بك؟»

«أشعر بالضيق»

«لا سرائر خفية بيننا»

أنهت كلامها المبطن مسحورة وساهية عن كل شيء حولها:

«المسألة ليس لها أن تُسوّى»

«كيف؟»

«لم يجب ظنّي بعد»

غَشِيَهَا النُّعَاسُ. غفت تشعر بضيق وعيونها تُحدّق تحديقاً مُفزعاً. هواجسها متضاربة بين الجدّ والدّعاة. خوف يكاد يتشكّل فتبدو لها بهيمة شيطانية. كانت «ريّاس» تُوجّه سياطاً محمومة. كالخرازين الجائحة. تستعذب تعذيب الآخرين. ففي ذلك تلفى حبورها. التوازن على حدّ شفرة الألم. وذلك ما داومت عليه دونما ندم. وهذا ما جعلها مرجعاً لكلّ الشرور. ولوناً من ألوان الهلوسة.

كان الدُّخَانُ ينسحب من رأسها ويعقد غيومًا شريرة تتزاحم. مضت راكدة الأعماق ومثقلة الخطأ إلى معرفة من

الطَّارِق. كان الطفل يتحدث بنبرة ضيِّقة لأحد الغرباء الذي كان مُلقًى كالشَّعبان السَّارح على الأرض. يمدُّ يده شيئاً بعد شيءٍ ليُعلمه أنَّه عمّه المفقود الذي خرج من خزانة الأساطير. فطنت «رنين» إلى ما يدور في خُلد الرجل الغامض بعد أن كانت تُغالط نفسها. احتقن وجهها. شهدت عليه خللاً ومُفارقةً. لا يَنيُّ يُعابث وجه الصغير الذي سحبتَه عبثاً مُغلقة الباب وتقلَّب على صفائح النَّار. في خطوات محمومة أغلقت جميع المنافذ وسحبت السَّواطيرُ تحسباً لأدنى مكروه.

قالت الجدَّة. «ما كُلُّ هذه السَّكاكين العريضة والطويلة؟»

أذنتُ رأسها من صغيرها وأجابت كالهامس:

«ثَمَّة من سعى للسطو عليه»

«من هو؟»

«لا أعرف من هو»

ثمَّ هَفَّت طويلاً إلى لكنة قلق وقعت فيها في السَّابق. وأصبحت ساكنة. تنشق بداخلها دوافع القتل. كان الوجه مُكدَّساً يكامل إضطراب مشاعرها الأخرى بجُنون تزايد.

وما كان التفكير السليم طوع إرادتها. لا شيء يتوضح أمامها. تعرّض أطفال الرّيف لهذا الاختطاف من البُعْج و«بو شكاره». هذا يشقُّ طريقه شقًّا لتكرار السيناريو الشامل في المدينة. جاس الماضي مُتهينًا لنزاع عنيف يمضّها. فتتحوّل ساكنة إلى قطعة باردة من الرخام. تُكثر من الرجفة والخوف. أي شيء قالته لها «ريماس»؟ لأبْد لنا أن نرتعب من كل ما هو غير مرغوب فيه. وأن نُدّوم على الرهبة بين آنٍ وآنٍ، على مرأى وعلى مسمع من الجميع. مدافع تدوي في رؤوسهم الثلاثة. قنابل تنفجر من أشدّ الأماكن حُلْكة واهتزازًا. وفي قبو المنزل تلاحموا ببعضهم البعض بدفقة البراكين النابضة وشرهة الإنتظار المسحور. وكان الخوف يتسلّل في تخويفهم أشتاتًا. الحقيقة غول أسطوري لا تُصدّق. والخوف يصل إلى الحقيقة. أي حقيقة؟ حقيقة الخوف. وما مبلغه؟ طال بهما المكوث، إلى أن جاء السيّد «وزير» ولاقاهم مُتهدّج الأنفـس وفي حالة لا تقلّ عن الإغماء. يقينه أن كلّ ما يخرج من حُنجرته ليس أكثر من كذبٍ على شخصه. سيأتي يوم يتحدث فيه بنفس اللغة التي تطنُّ في رأسه. مشى كأنّه مشدود بحبال طويلة من القبو إلى غُرفته شابكًا عقدة عنقه بعنف.

تحيز الشمس نحو الأفول. تقدّم بقدمه اليُمْنى واضعاً اليُسرى خلفها تماماً، كراقص كلاسيكي، وخلع حذاءه خطفاً. يعزف الطنين في رأسه أحياناً. كان له تخيلاً أنّ نساء الكون يسجدن تحت قدميه. يأملن تقبيل واحتضان يديه المُفجّرة عروقها. وأنّه سيّد المقام الأعظم المُتكبّر. سيّد المدينة والكون. وله كل الأهلية والسلطة والنّفوذ والولاية ليفعل بهنّ ما يشاء. كلّهنّ تحت مشيئته وطوعه. السبع في بواطنه مُنتفضاً وقحاً ومُهتاجاً. صرّ أسنانه في محاولة لدرء التفكير المنحرف عن رأسه. هذا التحديّ الأبدي لأهواء النفس السّادية والمُتحدية والعطشى، ألا ينتهي؟ انتزع جوربيه. خلع قمصانه. وشلح بنطاله. امتشق ثيابه كقشرة تُفّاح. تحوّل إلى الحّمّام وشحنات الهوس تندلع مع سبق الإصرار والترصد. المزاج المقلوب على رأسه علّة حياده عن كونه إنساناً. يتذبذب الشرر من زوبعة لَوثته. يستسلم للحُلْكة المُمتدّة. ما عاد في مستطاعه أن يُسيطر على ذاتيّته باستثناء أن يعصر اللّذي تمطّط ويلسه كُبنديّة مُلقّمة في انتظار الرشق الصّاعق. يُصرّح بأكثر هوساواته غرابية. فعلها خموراً مرّة وباستحواذه زايد أخرى وثالثة بحماقته ورابعة باستهتاره، إلى أن انهار يغمره السّأم، ينبذ

نفسه والذنب يعلو قلبه. حتّى دَسَّ كل شبر من كلّ مكان. كان يحسُّ أنّه اتّسخ إلى ذراه. أشواك الماء تسقط ببساطة وتبتلعه. تتكهرب الأنا السادية والطاغية التي تحكمه والعقل المليء بالمطبّات، فلا يُحقّق الجسد أدنى خلاص. قصد النّافذة عاريًا. أطرافه راعشة. كم من الحزن مضى. عضّ بين أنيابه عجين هذا العمر. يعتقد أنّه لا يُفضّل البقاء وحيدًا. ولا يهتمّ بما تكون النتائج أو حتّى الأسباب. نظر إلى أضواء الغروب السّاطعة والدخان المتصاعد الذي يضمّ السّماء كمُخلّفات البُنديّة. في النّاحية المُعاكسة حرقت «ريماس» كُومة من القاذورات. رشّت بخور الشعوذة ليتمكّن أكبر عدد من سكّان المدينة من استنشاقه. تحسّب أنّ ذلك ضروريًا لتشتيت أيّامهم.

أطلّ أحد المارّة من شبّاك سيّارته وقال مبحوحًا:

«كمّ أنتِ طيّبة يا جاري حتّى وأنتِ تحرقين الخُرْدَة ترشّين
البخور فنستفيد بالروائح الحلوة»

تُخرج من أعماقها حقلاً من المِراوغة والخديعة:

تُخفي جماع مخابها الكبيرة. «يعيشك، هذا واجبي نحو أهل
المدينة»

النار تزحف مُستعرة بوحشيّة. دخان شرّير ناغم يتشبّث
بأنوف النَّاس. تشهق المدينة مُعانقة موجة من الدُّخان.

تضاعفت رغباتها المسحورة:

وكتمت ضحكة شيطانيّة شرّيرة. «تعال واستنشق عن كُتب
أيّها العزيز»

إنبَلَق الباب بأصابع راجفة كما الصاعقة. يسحبها السيّد
«وزير» بشراسة السواد المُخزّن بداخله. عيناه محمّرتان. لهب
جهنّم يرتجّ وينحدر منه كالسيل. ساد اعتقاد مُفجع أنّ الجليز
سينخرم إلى نصفين ويزدرمُ ألها ومرارتها وسآمتها. قرّعها
السيّد «وزير» بين ذراعيه، يثني عُنقها. لسانه يلهج بصواروخ
الدم، أنّها كانت تُضللّه مع أحد البحّارة، إلّا أنّها كانت تتضرّع
إليه أن يترك يده تنزلق من رقبتها.

تُفتّش الجدّة عن إحداث المتاعب وكانت عيناها تؤولمان مثل
لسانها. «تلاويح»

«أمّي لا تتدخّلي»

تنفرط «رنين» الذابلة. محموعة تجترّ كآبتها. كان فيها ذلك

الوهن الخفيّ. ترتطم بطرف المنضدة في حين تحدجها بنظرة زاحفة. لا تأتي عن الإدلال أنّه كان محض بحار غريب بادلها قلّة من الدردشات. في حركة خاطفة تصدح الصّور من يد السيّد «وزير». تنظرهما «رنين» وكانت مجرّد صور لها تُشافه فيها البحار. تطفو أسئلة بكاء في رأسها حول هويّة من كان يُراقبها ويلتقط الصّور لها.

وأقرّت بما كانت قادرة عليه-وهي تنفجر باكيّة-تُحلق فيه:

«من أين لك بهذه الصّور المضحكة؟»

«أقرّين بالحقيقة الآن؟»

فكرّرت صرختها الجنونيّة وكانت نواياها حمقاء مُتصدّعة:

«الحقيقة أنّي لا أستطيع أن أتجاوز معك أبدًا»

«ما بقي فيك حقيقة لتُخفينها»

أعقبت الجدّة بصوتها المشروخ بفعل التّبغ. «لا طائل من ورائك ولا فائدة منك»

نظرت داخل المصباح الزيتي المعلق بالجدار الواشك أن يحمّد، وردّت بنبرة ترتعد هلعًا:

صغير مُرعب يسبح في الفضاء فيما الضيق الشديد يكبس
خناقها. «لا تكوني مُتَحَيِّزة مُجَاه ابنك»

«أُمِّي لا تحشري أَنْفَكِ»

«يُمْكِن لأي شخص التقاط صُور لأي شخص يتحدّث إلى
أي شخص»

قاطعتها الجِدَّة. «ما هذه العبارة المُرعبة؟»

يتلَكَّ السَيِّد “وزير” في اللَّفْظ وخداه مُنتفختان:

«عَيْنِي لَن تنام عنكَ»

تعزل أنفاسها، ويقلّ نبضها، فنَدَّت منها بحّة مُريّة، رنّت في
أركان البيت:

«لا تنم إذا»

«أَلَسْتُ على دراية بأنني أَسْتَبِقُ الخطوة اللاّحقة وأَتنبأ
بالمجهول؟»

تمنّت «رنين» وقتئذٍ -بصوت متحشرج مرير- أن تبتلعها
حُفرة ناشفة ذلك أنّها لا تُجَبِّد الرُّطوبة. طقطقة خفيضة

استحالت إلى قعقة. بمُجَرَّد أن أضحت الحياة تجرشها بقدمها الضخمة، صارت شائعة على الانحسار والالتفاف في حوض الاستحمام، مع البكاء المحموم، حتّى بُزوغ الفجر. تنتفخ مثل العرائس القُطنيّة. بزغت الشّمس دامية مُكتنزة وإسّترعت انتباهها. قَدَّرت أنّها في خطرٍ داهم.

(10)

بملاء ماله من فضول قرأ «طلال» ما كُتب على لعبة
جومانجي، هاته اللعبة مُحَصَّصة لأولئك الذين يُريدون مُغادرة
عالمهم. تمنح جومانجي اللاعب مفتاحاً لفكّ الأحجية. امتنع
«مرتقب» عن الخوض فيها بتلك الرغبة المُرعبة القابعة فيه.

«يا للعجب»

«أشعرُّ بالجُوع»

«توقّف عن الثرثرة وتابع اللعب»

«المباراة صارت حارّة أريد أكلها»

«لن تكون لعبتنا طعامك القادم»

«أنا فخورٌ ببطني»

«إنّها لا تُعجبني»

«اخرس»

«اخرس أنت»

«سئمتُ من الإخفاق»

«يا للعجب»

«أشعر أن أحدهم سيموت»
«المهم ليس نحن»

أيديهم تحوي جهازيّ تحكّم نيتندو متى انطفأت لمبة النيون التي يحوم الذباب حولها. يُعانق «طلال» «مرتقب» في عتمة الخوف المحترقة. كل ما في المكان يجمع بين الأحاسيس الراجفة. بسأمه، بهلعه، باهتزاز طفل إمتدّ به الترسّد ولم يعرف شعور الأمان. يلتصق جامدًا بـ«مرتقب» الذي فيه برودة جثّة. طفولة صاقعة كالموت تعلو من خروم الصّمت. أحسّ أن خطرًا سيدهمه عن قريب. أخطر حتّى من قريبه المباغت. أغلق باب الغرفة ضاجًا كصرخات الريح. ومع الظلام بدأت الغرفة تغرق في الضباب. وبدأ شيء يُشبه الحصار يتعرّز بمخاوف تتجلّى. الهلع يثقب شيء ما. يرغب في التحرّر. في قول شيء ما يُبائل الموت. الطفولة تنبش عن شيء ما. يُشبه الأمان والهرب والموت. ينبعث أنينٌ يتهمّ من كائن في قعر الظلام. يتنفّس ببطء وتشنّج.

يهمس «طلال» بالتي هي أخفض:

«من هناك؟»

لا أحد يُجيب سوى الأنفاس اللاهثة.

بتلك القدرة على البكاء والإرتجاف يُكرّر:

«من هناك؟»

لا أحد يُجيب سوى الأنفاس اللاهثة.

بذلك التشنّج المغزوّ الباعث على الموت يُكرّر:

«شغلّ الأضواء»

«مرتبّ» يخرس ولا يُجيب. ينكمش فزعاً. تموت فيه كل مبادرة تدعو للتحدّث، لإنارة الأضواء، وللخلاص. انفجرت ضحكة شريرة كالتّي يُطلقها خاطفي الأطفال. يشب شيء كربه على «طلال» يصبح شراسة ومقت. وفي العتمة يتكهرب «مرتبّ» إلى ركن الغرفة. لا يتحرّك. لا يتكلّم. يهتزّ «طلال» بين صفعات الظلمة. يتنأى عبثاً عن الشيء الذي يُلاحقه. يُفتّش عن ذلك الأمان الكاذب. لكنّ شرّاً عظيماً يُلاحقه كالطّاعون. يسحبه من معطفه. عينان من الظلام ساطعتان. يقع كالمقصلة على لعبة جومانجي. يُمسك حجراً الزهر ويسقط بهما على اللوح بالضوضاء التي في أعماقه. بسؤمه وخوفه وهلعته تجسّمت قوّة سطع منها ضوء يتوهّج كزوبعة راعدة. تشكّلت

كتابة كالديدان البارقة من قلب العتمة. سنعيده إليكم عندما يُصبح عالمكم أقل خطورة من عالمنا. فيُتلع إلى جوف اللعبة على شكل دوامة تسحبه إليها. «مرتقب» في الركن المظلم تربو أنفاسه اللاهثة كهلاك وشيك يشدُّ أعصابه. يفزُّ رعدة صاخبة، برطوبة الضباب ودسامة الظلام. يدور فاقد البصر عبر جدران الغرفة. يبحث عن الباب المخفي. الشيء القبيح يُمسكه. يلصقه بالحائط. يعث به. صرير سروال ينفتح بعدائية مكتومة. يخرج منه شيء مُدنس. يركله «مرتقب» بذلك الخوف القابع في قيعان ذاتيته. ويصرخ مُشوَّهاً بحثاً عن الباب. يدور مُحرقاً من لا جدار إلى لا جدار. أين الباب؟ يغمره المقت لهذا العالم. يدور كمجنون يغرق في قهره.

«دعني وشأني»

«أنا كابوسك، كيف لي أن أدعك»

وصقيع صاعق كالسهم ينغرس بين قدميه. يُعريه من مقاومته. يعده بالخوف ومواسمه. وشيء يُشبه البول يعقب من سرواله. يحشو نفسه في الظلام أكثر فأكثر. يهوي في بركة متحرّكة. يسقط عليه كائن السحلية بثقل جسمه. بحُبور

زواحف مُهتاجة. سوط لزوج يُشبه الجراح والتقرّحات ينضح. لعلّه المذي وسيعقبه بعد بُرّهاتٍ المني. يقصف البراءة. يقتل الطفل الذي كان في نفسه. العبث في الخارج يُريد الدخول. ترتعش أطراف «مرتقب» نَشَدًا عن نَجاة. يُطلق صيحات تثقب جدران الظلام السّميكة. يتهجّى كلمة أنجدوني. ينفرط بصعوبة الحياة والبقاء فيها والخلاص منها. يُسقط جسمًا صلبًا على رأس الكائن المُترصد. ألم يُقاطع الاستيلاء. ينفرط من بين تملّكه. ولا يدري كيف فعلها. يهتزّ في الزقاق المُعتم. يجد الباب بمشقة العبد المقتول. يتنشر النور كالإنقاذ المعبود. يتحوّل رأسه ذليلاً إلى معرفة الكائن الموبوء. يرفع عنه القناع بأنظاره النّازفة. كان عمّ «طلال». يتلوّى ويغرق في دوخته الدّائمة.

(11)

سُجن زوج «ريماس» وحقد قانٍ يندلع من عينيه. ولأنّه يُعدّ جزءاً من النظام السّياسي الحاكم، خُفّفت عُقوبته إلى أربع سنوات. ارتاح الكلّ من بئس أفعاله ولم يبق إلاّ ولع وحقارات زوجته المتلوّنة. لم يعثروا على «طلال». أو شيء لتوجيههم إليه. لم يسكف «مرتقب» عن قول إنّّه قد انزلق كالرمال المتحرّكة إلى لعبة جومانجي. سادهم اعتقاد أنّ الخيال يُخفّف خطورة وشدّة المأساة. على الرغم من أنّ الخيال يُوازي الواقع في ثكله. ولشدّ ما يكون الواقع مأساة اختفى «طلال» في لعبة. الخوف ما يُجسّم واقعيّة المخاوف. اتّهم «مرتقب» بالخيال، حتّى إذا كان لديه شاهد أو شهود يُتّهم بجريرة أنّه شخص مُتخيّل لا ينبي عن ترهيب الآخر. ولم يكن مُتخيلاً بقدر ما كان يُدلي بأشياء واقعيّة بدت لمنطق الكبار أنّها لوناً من الخيال لهذا الشيء أبقت «رنين» الطّفّل بداخلها لتصدّق أي طفل يقول لها شيئاً يبدو لمنطق الكبار أنّه خيال. تعرف ضمناً أنّ الأطفال وحدهم لا يُجادعون باستثناء قلة منهم ولدوا بجينات خبيثة ومُضلّلة.

يُقاسي «مرتقب» من عُطل في الدماغ. فقد انضمَّ بعاطفته داخل مُحيطه بشرهة. قلَّ إهتمامه بنفسه ويُمزق نفسه على وتيرة واحدة. هجر أنشطته الدراسيَّة، وهو يعجز عن فهمها بحُرقة. غير قادر على تَمِّمة أي حوار يبدؤه. يعرف بقناعة تامَّة أنَّ كثافة الاختناق تربو ويشردُ كلَّما ذاكر. صيحات مسعورة يُوقظها ذلك أنَّ عُرفته تعجَّ بالعناكب وأنباها. لا يرتضى أن يضع يديه على مقابض الأبواب. لا نهاية لرفضه أن يقعد على كُرسي قعد عليه غيره. يُغرسُ في شعور مُرعب بالتلوُّث والحاجة الملَّحة للاستحمام. لا شيء سوى أنَّه يتلافى الاختلاط بلا بُرهان. ويتعثر بلا دليل أثناء سيره. ويُصدر صريراً الزجاً كصرير أبواب الرعب التي تُحاول أن تنفتح عبثاً وشراسة على مصراعيها. ناهيك عن العصبيَّة والعناد الملسوع الذي يسود العالم، له التعبير عن حُزنه المنهك بكسر أي شيء أمامه، كغضبه، كحقده، وكتيهه، أليكتشف ذاتيته؟ بيدَ أنَّ الكلَّ بدؤوا يُعاملونه بدلال بعد فترة الحِداد تلك.

قالت الجدَّة وصوتها آخذ في الانخفاض كرمال تقصف الرياح كُثبانها. «هذا سُخف. ابنكما يُجنَّ»
أخذه السيد «وزير» إلى طبيبه النفسي الذي بتَّ في حالته

وأثبت أنّ اضطراب الوسواس القهري وعدّة اضطرابات نفسیة قد يطول أمدّها في وقتٍ لاحق، بما في ذلك الذهان. لا بدّ أن يُقابِلوا ردود فعله بهدوء. صرف له مُضادّات الاكتئاب من الجيل الأوّل بجرعة مُنخفضة.

إنتهى السيّد «وزير» إلى التساؤل باصطكاك صوته المدفون. «هل سيكبر ويكون شخصاً سوياً؟»

لا يُبدي الطبيب دهشته. «لا أعرف، ثمّة إحتِمالات نسبيّة»
«أي شيء عن مدّة أخذ الدواء؟»

«سأخذها أطول فترة مُمكنة إلى أن يتحسن»

«وإذا لم يتحسن قريباً؟»

«سأستمرّ في إعطائها له»

من المألوف أن يحصل الابن على جُنون والده. وليس لدى الوالد ما هو أسوأ من ذلك ليُعطيه إيّاه.

ينقبض الأسى الأسر أسهمًا ضاربه تُثبّته على جدران الصّمت المرتاع والأبدى. أصبح هامدًا أكثر ممّا كان عليه قبل

استخدام الدواء. تنفجر اللامبالاة في حد ذاتها ناقمة مثل بحر شاسع لا نهاية لامتداده، لعمقه، ولصمته. تستيقظ الدموع من مآقيه. توقفت «رين» عن اعطائه مُضادّات الاكتئاب. لا يتكلّم. أنجبت فتى صامتا. أخذ ينزف شلّالاً من التوقّف المفاجئ للدواء. هُنالك الموت، دقّات الموت، هزّات الموت، دوام الموت. لن يستمرّ في الحياة أكثر من يوم واحد. اتّصلت بالطبيب وشعرت بقطرات اللعاب مُتناثرة من ثقب الهاتف تنقل لها أنّ تصرّفها غير مسؤول والتوقّف فجأة يُسبّب النزيف والوفاة. لأبّد أنّ تُرجعه إلى هذا الدواء اللعين وتُقلّل من جرّعه إلى أن يتوقّف عن تناوله. ويبدو أنّ «رين» عازمة على اصطحابه للعيش في الريف. لن تتركه في ترّقّب المترصد المخيف.

قالت الجدة مُتمعضة «إلى أين ستأخذينه؟»

«إلى بلدي، الوضع ليس آمناً هنا»

«هل تناقشت مع زوجك؟»

«كلّا، الطفل يضيع، لن أقف مكتوفة الأيدي»

«أأنتِ متأكّدة ممّا تفعلينه؟»

«بكل تأكيد»

إلى السيّارة يصعد وتنطلق به نحو طريق بعيد. كما تحمل
الريح سحابة ضائعة من سماء إلى سماء. ثمّة ذلك الخوف الدفين
يركض من طريق إلى طريق يُخبرها بمُوجب ارجاعه. ضياعه في
المدينة أبدًا. تتجاهل الخوف بهمجيّة وبلاهة. تضغط على دواسة
السيّارة برقًا. يلتصق الخوف ببلور السيّارة كالأصباغ. يصرخ
بخوف حقيقي أين المفرّ؟ أين النّجاة. تضرب الريح الخوف
فيسقط على الطريق السريع. تتقاذفه السيّارات. يموت ويكبر.
يسعى ركضًا إلى المدينة. أوقفت «رنين» السيّارة أمام بيت
العائلة. كما لو أنّها ترى الريف للمرّة الأولى.

قالت أمّها عبوسة. «كم سيبقى؟»

«لشهر واحد»

«ودرسته؟»

«سيدرّس بالبيت»

«ماذا لو خرج دون درايتي؟»

«أحرصني على مُراقبته»

«والمترصدون؟»

«لا يوجد شيء من هذا القبيل في الريف»

«أجُنت؟»

«الذين تهذين عنهم موجودون فقط في البشر»

«عن أي شيء تتحدّثين؟»

«البيع وبو شكاره وعيشة قنديشة وغيرهم، هم بشر يتمون

للحزب الحاكم»

«أنتِ حقاً قد جُنتِ»

«جعلونا نُصدّق هذه الأكاذيب حتّى يُداهم عمدة الريف

المارد ويُخاتل في حكمه»

«تكلمي بواقعية»

«كل هذه الألاعيب سياسيّة»

«أنتِ لا تتنبّئين إلّا بالمكروه»

«لأي شيء لم نرهم من قبل؟»

«لماذا عليك أن تقولي السّخافات دائماً»

«ولأي شيء يبشون خبر اختفاء الأطفال والرجال دون أن يفوت أحد منّا؟»

«أنتِ حقاً قد جُننتِ»

«أنا مجنونة لأنني عرفت الحقيقة، وحدهم المجانين يعرفون الحقيقة»

«هل تُشاهدين أفلاماً مُغفلة؟»

«إننا نعيش في قفص الأوهام»

لأنّ كلّ من يقول الحقيقة يُتهم بالجُنون خرجت. شعرت أنّها تُحاور الجدة مكان أمّها. وقبل أن تلحق بالسيّارة مهدودة، رأت رجلاً يطرق على بابا المنزل الجديد المُجاور لها، عنوة. في خطوه عرج. بفضول مُلتاع يشدّها إلى التقصّي اقتربت تزحف كعمود جافّ في عمق الصحراء. فُتح الباب وكانت فتاة. كان بمُستطاعها أن تُدلي: «تقبّل أسفي. نساء القرية لا يتحدّثن إلى الغرباء» فردّ الرجل الغريب ليقول مُستعظفاً بلهفة سلال القلوب «سيّارتك تعطلّت» كان الرجل يختصّها من بنات الريف لأنّها حمقاء. اندلعت قهقهات مُطارِد يصطاد أرنباً. خبرت هذا الحوار المرعب في مثل هذا اليوم منذ تلك السّنة. هل جُنّت حقاً

كما قالت لها أمّها؟ تردّد وحشي بنفجر من أعماقها. كأنّ الماضي المكهرب يسعى ليُعاد بلا زمن في زمن آخر. وتظلّ محافظة على صمتها. يُمزّق شُعاع الحاضر أعصابها نتفاً. ألعنة تلاحق نساء الريف؟ ليس لها أن تُزيح الستار لتتكشف عن ضبابية الواقع أكثر. لن تغوص في الحقيقة أعمق. وربّما تكون قد جُنّت وأمّها مُحقّقة. وقبل أن تصل إلى نهاية الريف خرج لها بو شكارّة يصيح كفزاعة تتوهّج حقداً. يُشدّد حصاره عليها. يتحرّق إلى أكلها أو حتّى زجّها في كيسه كسمكة ستعتاد شبكتها. ترجّلت من سيّارتها ونزعت عنه رداءه الكحلي فكان حارس المعتمدية. مُتّجهاً راکضاً إلى الجهة المعاكسة صارخاً بلوعة كُشفناً.

«أين أمّي لترى أنّي لستُ موهومة»

كانت على دراية بكلّ هذا. الفتاة التي تربت على الرصد. تعرف الرصد سلفاً. كانت تعرف ضمناً أنّ حياة الأشرار سهلة. لاقت الجدة وقد كان الجوع يطوي بطنها.

«لأيّ شيءٍ أبطأت في المجيء، تلك السيّدة لا تكفّ عن مُهافتك»

ما أثار دهشتها أنّ هذه السيّدة-التي لا تعرف أنّها كانت صديقتها «ريّاس» من الريف- على دراية بما يحصل لها. كقوّة شيطانيّة مُربّصة برأسها. تترصّدها عن كثب. تترصد كل أمور حياته. تعرف عليها-بشكل حاسم- كل كلمة تقولها. تمكّنت من التسرّب إلى كامل حياتها. في تماثلها بـ«عيشة قنديشة». بل أخبث كائن جاء إلى الحياة.

لقد حلّ الصّقيع مُجدّداً. في ذلك الشهر، شهدت المدينة موجة ثلج لم تشهدها منذ عدّة قرون. يسقطُ الثلج مثل بتلات الزهور البيضاء. لم يتمالك السيّد «وزير» الرعشة التي تناثرت في مُعظم أجزاء جسده. أشبه بسواطير تُقطّع. مُنذُ متى فقد رغبته في هذا الفعل؟ كلّما حضرته هذه الفكرة، فكرة الهوس، ينفجر شيء في جوفه مثل زوبعة زمنيّة هائجة. في هذا الطقس البارد وبعد فراغه من العمل لاقى فتاة ليل على مرمى البصر ليغتذي بها. عاودته ديمومة روحاته وغدواته. لا تنضب عزيمته بسُهولة. كأنّ شيئاً ما نال من قدرته على الإدراك. فعل ما كان عازماً على فعله. عند الفرع والهيّاج كان مُكرّهاً على ليّ رقبتها في تماثله بمواصفات هتلر. تركت له عينان بهلوانيتان. ولا يحدث له أن يشعر

بالاستياء. إنَّ مثل هذا القتل لا يُلغى قتلاً آخر. في غابة كثيفة الأشجار أقدامه تمتدّ نزولاً حاملاً مجرفة وجُثّة. يتدحرج على المسحوق الأبيض كما لو أنّه يطير فوق بساط سحري. لا يخلو الهواء من رذاذ الرطوبة. حدث ما لم يكن في حُسبانهِ. القبر الذي بدأ في حفره دُفن فيه جثّة مُسبقاً. خرجت منه صراصير. وجد «طلال» ميّتا. جسده مُتراخ في حالة سفاد. ذاب السيّد «وزير» خوفاً. والصرخة التي انبعثت منه، على رُغمه. ذرف دموعاً حارّة. كان لهذا الحادث وقعٌ في نفسه. أفكاره مُعقّدة في هذه الأوقات. وطال علي وطأته. أرجع جثّة فتاة الليل إلى سيّارته. بذل جهداً وهو يُفكّر. وساءل نفسه ماذا هو فاعل؟ فكّر جيّداً في هذا الأمر. ذهب إلى مدينة أخرى. من خلال التاكسيّون خبر مركز الشرطة بجثّة «طلال». أثبت التشريح أنّ لعمّه يد في ذلك.

(12)

حلّ الربيع على نحو مُباغت. للشمس الحارقة انحيازاً باهتاً. دأبت على أن تُصعّد من صوت التلفاز متى كانت على الهاتف. أو أن تلجأ إلى وضعه في كيس كبير ودفنه في الحديقة إلى أن يحين آوان رحيل الزوار. تُغلق رتاج الأبواب دورتين. مع ذلك، اقتحموا منزلهم أثناء غيابهم عنه. تركوا القاع فوق القمّة. دأبوا- ككلّ مرّة- على التبول في خلف الباب المكسور. فضلاً عن أثر أقدام طينية. كان هناك دائماً سؤال في ذهنها- ما الذي يسعون إليه على وجه الخصوص؟ في مُستقبل الأيام. شلّها الرعب. رُعب أشبه بالبحيم. شلّحوا جواز سفر السيّد «وزير». تلقّى برقيّة من مفوضيّة الشرطة. من أرسل بهم إليه؟ كانت «ريماس» تراقب عن كثب وترتدي كنزة صوف زرقاء وتحتها بنطلون جينز، تزم لفافة تبغ. يصل بها الحقد أقصاه. وفي مركز الشرطة عمّ السكون. أنكر أي مسؤوليّة. لفّ ساقاً على ساق. أطلق أحد خفراء المدينة سلسلة من الشتائم. مرّ يده على حزام بنطاله «لا تُهرّج. أنت مُذنب» لديه ميل مُعقّد لإساءة استخدام

منصبه لقضاء حاجاته. كما في طبع البشر. أن يُغالي في الضرب والإهانة لعلّ شعوره بالسّعادة يعلوه. قام اللعين بتضخيم اضطرابته. ثمّ تكوّنت لدى السيّد «وزير» قناعة تامّة بأنّ أمره قد قُضي. أحسّ بالحُمق. كل الأشياء تنزلق من قبضته. بضغّ موجات مُرتعشة تُصيب رأسه. كان غباءً منه أن يدفنها في الغابة. لو علموا بالجثث في القبو والتحنيط، لحكموا عليه بالإعدام أو بمستشفى للأمراض العقلية. لقد ضاع كل شيء. أودع به إلى السّجن لمدة ثلاثين عامًا. في سنّ السادسة والسبعين سيُفرج عنه. لا يُحسّد على مصيره. انتشر الخبر في أثناء ذلك مثل جبل من نار. هدمه السّجن وغير من ملامحه، بدا أنمى نقمة وأوسع لعنة. يحبس في ذاتيته شيئاً غريباً للغاية. يحسّ يحسّ بالراحة من الظلام الذي يكتنفه. يكاد يفقد عقله من الرطوبة. لاقته «رين» بالإحجام والإباء. أراد أن يعانقها تلعّفًا بها، فوقفت مُبعدة تعجّ بالعواصف. مُعوّجة رأسها. تنظر حائرة. وعبست في تكلف. لم يعد مجيئها منتظمًا. رائحة الغرفة نتنة ومُقرقة وجرداء من الإنسانيّة. كان لها تصوّرًا للأوكار التي يتقاسمها مع ثلة كبيرة من السّجناء. إلى غير ذلك من موت يتجسّد قبالتها بين الحين

والآخر. يقول مبهورًا ولكنه دخيلة يزيدُ حُزنًا إلى حُزنها «ليس لي شأنٌ بذلك» تلتقي أعينهم قليلًا من الوقت وتقولها وقتها بمرارة: «الجريمة ثابتة، لقد دفعت قسطًا من الضريبة، أدرك حجم الخسائر التي أحاقني؟» يقاطعها بصوت مر خانق يحمل التعاسة: «ما كان يتعيّن أن تأتي» طفقت تُفتّش في مكنونها عن أشياء تُؤويها لكنها لا تجد من جواب. تعرف حجم الهفوات الفادحة التي اقترفتها وكلّها تأتي على شاكلة واحدة. صمتها المفروض في أوقات رفضها السري. يجدر بها تسوية غيض من فيض. وتعرف ضمنيًا كم هي مُتقاعسة. استحال صوته يتلهّب- في لحظة مُباغته- إلى أنين وانهار عليها، يُعانقها مُحاولًا إسترضاءها. مُكتئب جدًّا على فعل أي شيء. يُغالب على ما فيه من تداعي أسبلت جفنيها خاضعة. ناطقة بالآلم. انفطر قلبها إضطرابًا. كانت الأرض تמיד من تحتها مُتمهّلة والأصوات السائلة تتمزّق. تدفق لغط السجّان يُشدّد الرقابة عليهما: «زيارة السّجين انتهت» الأسوأ كان أن ينظر إليها السّجان نظرة استهجان. يتصايح السّجان ثانية بصوته الرنان والمُصلّت على رقابهما: «ألم تسمعا؟» أردف السيّد «وزير» والغصص تقطع

صوته: «سأحيني على كل ما بدر مني» ما قاله لن يجعلها مُحسنٌ في شيء. في قادم الأيام اقتحموا المنزل بحُضورهم. تنبَّهت من غفوتها على الضوء السَّاطع في الممشى المُفضي إلى الغرف. يترامى إلى مسامعها-من وقتٍ إلى آخر-اصطكاك الكراسي والأواني. أكلوا وشربوا وتمطَّطوا على الكنبه كالقطة. كانوا يُطلقون اللعنات ويتكلَّمون بأقصى صوتهم. تشمَّز منهم علناً. لا بدَّ لهم أن يتصرَّفوا معهم كالأشباح. يرددون في بواطنهم ليس هناك أحد. لا حاجة لهم لئُزعجوا أنفسهم ومن المحبذ أن يتناسوا وجودهم بالبيت. التخاطب ينحصر بالإيحاءات والتلميحات. مُشاهدة جلوسهم هذا خادعٌ. كائنات من أعصاب فولاذية. تتماسك الجلدة كي تُبرهن أنَّها أقوى من كلِّ هذا. تسعى «رنين» لخداع نفسها بأن توهم نفسها أنَّ لا أحد هنا. لا تحسُّ داخل المنزل أنَّها في منزلها. ما يفعلونه جُنون. خالص الشعور من أنَّها مُتعبَّة ومرصودة جعلها تنغلق على ذاتيَّتها. كانت فكرة الرصد هي التي تُورِّقها. أما زالوا هُناك؟ لا يفارقها التوتر كذلك. وصل بها التفكير إلى ما هو أبعد من ذلك. وإحقاقاً للحق لم تكن تُحْمَن في شيء. يستحيل على أيِّ منهم أن يعترض على إهانتهم. كان

يجب أن يُستجابوا للقذف بأذرع مفتوحة. مُجدداً كانت هناك في المطبخ، جلست على الطاولة، ساهيةً عن كل شيء، فإذا به يُخرج رأسه من مفرش المائدة، يحشر أنفه في أمورهما ويقول: «هل تعرفين؟ ينبغي للجميع أن يعرف» تُبت لها ما شاهدت. ولكن هذا كل ما كان يُجيده التلصص. لا تلبث أن تنتابها الدهشة ما إن يقترب منها ويترك تهديداً بين أذنيها. صرخت مُتفوضة في مواجهة ذلك الشيء الذي ألقى بنفسه عليها. مُحاولاً الاعتداء عليها. كانت لا تُطلق أناملها إلا وتُخطئ مكان الساطور. يتكلم بلا تحفظ ويُطلق سفاهات لا يتخيلها أي تصوّر بشري. ينظر إليها على أنها أشياء تُأكل وتُشتهى. ترفع السكين في وجهه قائلة أنها ستقتله وتقتل نفسها. لما لا يروقه أحد غيرها. لا تستطيع مُدارة دموعها. سقطت الجدة بمطرقة على رأسه وغمره الإغماء.

أمسكتا بالشمعدان وكان نوره يتراقص رقيقاً مثل الهنود الحمر. إلى القبو أقدامهم تمتد نزولاً كأن مغناطيساً يشدّهما إلى البدايات التي فيها النهايات. أشعلت الجدة لفافة تبغ. سكبت عليه «رنين» زُجاجة ماء حتى استيقظ. يمسح المقيّد-الذي كان رأسه ذو شكلٍ كروي ويميل إلى السُمرة-بطرف قميصه

أنفه الماخط. تلك النظرات المنبثثة بمثابة عدوان إليها. ترك في داخلها إحساسا بالتقرّز. وأيقظ الوحش الحاقد من لجة أعماقها. وجّهت له بالعصا لكلمات.

قالت الجدة مُشدّدة. «لا تدعيه يحظى بما يُريد، اكتمي غضبك»
قالت «رنين» غير مُسيطرة على نفسها. «أي شيء تشاء منّا؟»
ردّ ساخرًا. «المتعة، أثمانعين؟»

لا تلبث الجدة أن تتابها الدهشة وتغوص لفافة التبغ في كتفه. «خذ هذا»

هذا الألم جعله لا يتجشّم كلمة.

ضربته مُجدّدًا. «تكلم»

وكل ذلك لم يجعله يتجشأ بكلمة، إلّا أنّها هدّدتَه بقطع جزء من جسده.

أردفت مُتهكّمة. «تعرف أي جزء أقصد»

استزادت:

«أقصد اللسان أيّها المنحرف»

سحبت الجدة فأساً من كومة الأنقاض في القبو. تسود
الطراوة في الجو. لم يستطع أن يتمالك الرجفة. يسعى إلى التوكيد
على أن العالم الذين يشتركون فيه هو عالمهم.

تشكّل «رنين» في دوامة مائية:

«من أنت؟»

«محب الترصد»

«أنا لا أفهمك»

«ما الفهم الذي ترغبين به؟»

«ترصد من؟»

«أرصدكم أنتم؟»

«وما الهدف من هذا الصنيع؟»

«إنها أوامر»

«أوامر من؟»

«من فوق؟»

تتعامل بقدرٍ من المغالاة. «أعرف أنها من فوق»

بصق في وجهها ولم يبدُ على ساحتها أي مسحة تشي بالاستياء.

ركلته الجدة وكانت ذات عزيمة شيطانية. «تكلّم أيّها الحيوان الشاحب»

«رفقتك ممتعة يا جدّتي»

ولن يقيم برّدة فعل إلا إذا اقتضت الضرورة القصوى. كيف يُمكن أن يكون فيه هذا القدر من الخديعة. صمت ولم يبد جواباً إلا حين رفست «رنين» أحشاءه بطرف حذائها. شخص لا تربطها به أي صلة معرفة يقتحم بيتها ويأكل وينام وعليها أن تتصرّف على سجيّتها. هذا يُسمّى انتهاك حرمة مسكن. يصدرُ عنه قعقعة خفيضة. يرمقها بوقاحة. يتحاشى الحديث الدائر بينهم.

يُجرى النقاش في جو من الخُشونة والفوضى:

«ألا يدفع هذا الفعل أي عاقل إلى دوامة الجنون؟»

وذيلت كلامها بعبارات تعسّفية:

«وحده التّرصد تعرفه؟»

«أنا مثلك لا أعرف شيئاً»

«ما أبقيتموه لنا لنعيش لأجله؟»

«تدّعين عدم الخوف بينما أعماقك ترتجف من الخوف يا جدّتي البائسة»

لكزته الجذّة بلفافة تبغ أخرى. إذا كان ثمة شيء ينبغي عليه أن يقوله ليقوله الآن. انصرفت برهات طويلة قبل أن يقول ما يُفكّر به. ثمة قاعدة وحيدة تُؤلف بينهم ألا وهي التكتّم. جحظت عيناه مثل طائر انفجر مُحلّقاً من خزانة حيث يُوجد عالم آخر. ما الذي يُريدونه على وجه الخصوص؟ أي شيء يتغونّه؟ هو أيضاً لا يدري. مُجرّد دُميّة يُحرّك من الأعلى. يقولون له راقب فيراقب. اقتحم فيقتحم. عتّف فيعتنّف. إنّّه واحد من مئات الآلاف من هذا النظام. رجاله مُختارون منذ ولادتهم. الترصد، شيء يجري في دمه. وُلد ليقوم ببعض الأعمال غير السارة. نقل لها أنّنا نُشاهد بعضنا البعض عندما تكون الأمور خاطئة. لكنّهم في هذه الحالة يُراقبونهم لأنّهم يفعلون أشياء خاطئة ويخافون من الوقوع في المصيدة. لا يجب أن تُسمّي الأشياء بأسائها. صدى الصّوت - بالكاد - يرتقي إليهم. يخفون أجهزة تنصّت - نطاق اشتغالها واسع - حتّى في معاطفهم وبيوتهم وسياراتهم.

«أي أمور خاطئة ترتكبونها؟»

هُنَاكَ مُنَازَعَةٌ صَرِيحَةٌ. «المتعة؟»

حريصة الجدة على تجنب إثارة أي أديد. «تكلّم أيّها الحقيّر»
وقد بدا في مظهر أحمق. «أيتها العجوز الكريهة كفاكِ حرّاً لي»
هزّت يدها لكتم الأمر. «ولكن إلى أين نحن ماضون؟»

المتعة التي يتحدّث عنها تكمن في بثّ الخوف والسلب والمراقبة والقمع والعنف والجنس وابقاء المرض وإدامة الألم. يُجَادعون ويرتدون الأقنعة. يتحلون شخصيات من أجل الدخول بين عامّة الناس من خلال نيل شفقتهم. لا يُيَمانعون في نَشل الحُقوق ويفعلون بهم ما يشاؤون. لا أحد من العامّة قدّم جواباً. يُمكن لأي شخص أن يُجري أشياء كهاته طالما أنّه على مقربة من السلطة. التّجْويز والتّسويغ بنشوء وتواتر ذلك يُعدّ متعة مكرّمة. إنهم في غالبيتهم العُظمى يضعون أصابعهم المُتسخة في أغراض النّاس. أظنّ في كلامه أنّ هذا هو كل ما يعرفه وما في مستطاعه التصريح به. باستثناء أنّ زوجها كان له يد في هذا النّظام.

كانت تتكلم عن نفسها بعبارات فيها حدة. «وما شأن ابني في هذه الوقاحة؟»

أطالت الجدّة في ضربه حتّى سقط مشبك شعرها عليه دون أن تعرف ذلك.

كان فندقه مجمّعاً لرجال سلطة المدينة لقضاة ومُحامين وأطباء وفنانين ورجال أعمال وأزلام الحزب الآخرين. فندقه كسائر الأماكن التي يُمارسون فيها انحرافاتهم وقوّتهم بشكلٍ إجرامي. إنهم حتّى يقتلون أثناء مُمارساتهم. كان اليوم الذي صار فيه عصيّاً عن فتح فندقه لهم، فانقلبوا عليه. هذا سبب رصدتهم الدائم وتخويفهم لهم. لم يُعاقبوه، بل راقبوه إلى أن كان مجيء اليوم الذي سجنوه ولم يُعاقبوه. من وضعه في السجن هو من حاول الاعتداء على ابنهما «مرتقب». الخديعة أن يتلاعبوا بهم وخديعة الخديعة أن يرصدوهم كيلا يُدركوا ما يفعلونه. تحوّلت السّلطة من الحُكم إلى التلاعب والقمع والرقابة وإراقة الدماء من خلال المتعة. خديعة الخديعة تكمن في إثارتهم وإمتاعهم حدّ قتلهم. ليست الهواجس ما يودّون أن يروها بل ظلالها. نحن نعيش في وقت بالكاد نؤمن فيه بأي شيء. ثمّة حقيقة وهي أن

تخدع نفسك. أن تُقَرَّ للحقيقة أنَّها كاذبة على أكمل وجه. هذا النظام أكثر شمولاً مما يعرفونه. إنه مثل بئر برهوت. لن يعرفوا شيئاً عنه بغض النظر عن مدى صعوبة مُحاولتهم. وإذا حاولوا، سيُهَاجمهم الموت.

وكل ما يخرج منه في تلك الأثناء يظلّ هامداً. «ألم يُحشر زوجك في السجن بسبب ما قلته آنفاً»

كان لهذا الحادث وقعٌ مُضطرب عليهم. في ذلك الصّباح مضت «رنين» إلى متجر الغذاء. الطعام لا يكفيهم زاد ثلاثة أيام. كان التفكير مصدراً لا ينضب من الأحزان العظمى. قُعودها في هذا البيت كفارة لأخطاء لم تأتِ عليها. استحال جسدها حُطاماً. بحثت عن أدنى سائحة للتلهي لأنّ شعورها بالفجعة يُلقي بها في زوابع مُحلّقة. كأنّها حُفرة مُضطربة. كان الجوع عاصفاً والسّماء كالحلة الظلمة. يتعقبها كل صباح شخص ما سيراً على الأقدام أليتكّد من أنّها ستكون على أتمّ ما يُرام؟ زحف رأسها في تفكير عميق وتساءلت عما قاله لها مُحبّ الترسّد عن مُقارنة النظام ببئر برهوت. أي شخص يريد أن يعرف أدنى أسرارهِ سيتعرّض للهجوم بالموت. ماء الحنفيّة

الَّذِي يَتَخَلَّلُهُ رَوَائِحُ الْمَجَارِي يَغْلِي وَكَانَتِ الْجَدَّةُ تَقْطَعُ الْبَطَاطِسَ إِلَى قِطْعٍ صَغِيرَةٍ مَتَى جَاءَهَا مُحِبُّ التَّرْصَدِ مِنَ الْخَلْفِ. غَطَّسَ لَهَا الرَّأْسَ فِي الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ وَأَعَادَ مَشْبَكَ شَعْرَهَا الْمُتَسَاقِطَ. بَدَأَ وَحْشِيًّا بِشَكْلِ لَا يُصَدِّقُ. دَفَعَتْهُ الْجَدَّةُ تَتَلَوَّى. انْتَفَخَ وَجْهَهَا مُشَوَّهًا كَالْقُرُوحِ. اقْتَنَصَ مُحِبُّ التَّرْصَدِ السَّانِحَةَ وَأَشْعَلَ النَّارَ فِي الْمَطْبَخِ. «أَمَا كُنْتَ تَحْبِينِ حَرْقِي أَيُّتَهَا الْحِيزَبُونَ» أَطْبَقَ الْبَابَ عَلَيْهَا وَغَادَرَ مُتَعَجِّلًا الْبَيْتَ. انْتَقَلَتْ هَمْجِيَّةُ النَّارِ وَغَطِيطُهَا إِلَى الْجَدَّةِ. اخْتَلَجَ لَهَبٌ مَلْسُوعٌ يَهْزُهَا وَيَلْطَخُهَا. تَسْتَعِرُ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ الْمُتَمَاوِجَةِ وَبَاقَاتُ شَرِّهَا فِي جَلْبَابِهَا. الْحَرِيقُ يَلْتَهُمُهَا. تَتَحَوَّلُ إِلَى جَسَدٍ يُشَبِّهُ الظَّلَامَ. تَضَخَّمتْ صَرْخَةُ تُذِيعُ الْمَوْتَ. سَقَطَتْ الْجَدَّةُ تَتَفْلُطِحُ عَلَى الْأَرْضِ. تَرْتَعْشُ لَا إِرَادِيًّا كَالدِيكَ الْمَذْبُوحِ. ثُمَّ صَارَتْ فَاقِدَةً الْوُجُودِ. وَلَّتْ «رَيْنِ» عَائِدَةً إِلَى الْبَيْتِ وَكَانَ الدُّخَانُ يَتَسَرَّبُ كَأَعْمَدَةٍ تَتَشَابِكُ. فَتَحَتْ بَابَ الْمَطْبَخِ عَنُودَ فَلَاقَتْهَا النِّيرَانُ الْمُضْطَرَمَّةَ ضَارِيَةً بِأَنْوَارِهَا الْبَرَّاقَةِ وَالْمُبْهَرَةِ. وَقَدْ بَنَجَتْ الْفَجْجِيعةَ أَقْدَامُهَا. اسْتَكَانَتْ عَاجِزَةً قُبَالَةَ مَشْهَدِ احْتِرَاقِ الْجَدَّةِ غَيْرَ أَنَّهَا سُرَّعَانَ مَا وَجَدَتْ نَفْسَهَا مَدْفُوعَةً بِأَيْدٍ خَفِيَّةٍ إِلَى زُوبَعَةِ اللَّهَبِ الْمُقْوَسَةِ. تَتَشَعَثُ فِي اتِّجَاهَاتٍ مُتَفَرِّعَةٍ. يَنْبُعْثُ

زَعِيقُ مُفْجَع لا طَرِيقَ لَهُ. عَلَتْ ابْتِسَامَةُ «رِيَّاس» تَتَجَسَّمُ إِلَى أَفْعَى جَائِشَةٍ تَطْرَحُ السَّمَّ فِي وَجْهِهِ مِنْ يَقِفُ فِي وَاجْهَتِهَا. تَصْفَعُهَا بِأَعْيُنِ حَاقِدَةٍ وَنَاقِمَةٍ. شَخَرَتْ كَالْخَنْزِيرِ الْمُدَّلِّ. تَكْتَفِي بِتَدْبِيحِ الْكَلِمَاتِ السَّاقِطَةِ. مَا كَانَ يَجْعَلُهَا تَتَرَبَّعُ فِي عَوَالِمِ الرِّصْدِ وَالْخَدِيعَةِ دُونَ هَذَا الْمَكْرِ. لَمْ يَلْبَثِ اللَّهَبُ الْمُهِتَاجُ بِأَلْوَانِهِ الْمُتَرَاقِصَةِ وَدِهَالِيْزِهِ أَنْ شَرَّعَ فَمَهُ وَبُؤْبُؤَهُ أَثْنَاءَ مُعَانَقَتِهَا وَبَدَأَ يَأْكُلُ كُلَّ بَوْصَةٍ مِنْ جَسَدِهَا حَتَّى أَصْبَحَ يَتَأَجَّجُ وَيَعْلُو كَوْحُشُ أُسْطُورِيِّ يَزُرْدُ الْحَيَاةَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا. تَسْتَحِيلُ مَتْعَةٍ مِنْ مَتْعِ كَهُوفِ جَلَّادِي الْمَدِينَةِ. سَحَابَةُ الْعِقَابِ الْحَزِينَةِ تَعْبُقُ. شَيْئًا خَسِيسًا مُفْجَعًا وَسَادِيًّا يَغْرُسُ صَوَاعِقَهُ حَدَّ عَتَمَةِ الْمَوْتِ.

السَّاعَةُ: ٢٧: ١٥

كُتِبَتِ الرِّوَايَةُ فِي الْفَتْرَةِ مِنْ ٢٤/ ١١/ ٢٠٢١ إِلَى ٢٨/ ٠١/ ٢٠٢٢

(عَدَدُ أَيَّامِ الْكِتَابَةِ: ٣١ يَوْمًا)



ياسين الغماري

خديعة الخديعة

ذات صباح في تشرين الأول/أكتوبر، كانت الشمس مُشرقة بشكل صارخ. المباني تصلي بالسيارات المحموم. انطلقت الريح الباردة بعثوها. بدأ الخريف في التقاط حقايبه منذ أيام قليلة. تلمست "رنين" المذياع المُضاء. لم يكن مُعيرًا على نحو جيّد. ينبعث منه أن زوجة رئيس الحكومة تقاضي المُمثلة على أساس هذا التصريح اللاأخلاقي. أطفأته. شاهدت ركض أولاد المدرسة من بعيد. تناهت إلى مسامعها الوشوشات والهمسات. يلعبون الغُميضة. يبحثون عن مهرّب، مكان آمن للاختباء. يهتزون بشيء من الحُبور. حالما يكبرون سيدركون أن هناك هزّات، لا يعود المرء بعدها على ما كان. كانت على دراية كاملة بهذه الحقيقة والأمر يعود إلى البيئة التي نشأت فيها إذاك. نزل الطفل في مُؤخرة السيارة. لم تكن طموحاته هي نفس طموحات عصره. لقنته "رنين" حب الكتابة والقراءة، لذلك يُريد أن يُصبح كاتبًا مُتخيّلًا. يُقارع الأشرار بالمُخيلة. أمّا بقية الصغار فلديهم إمكانية "الغُميضة" والسعي للتواري الأبدى من الوحش الذي يُلاحقهم. في حين كان الصغار يفرّون من الوحوش المُترصدة بهم، على حدّ سواء الغُبيّة أو كما يُسمّيها البعض بالغولة المُخيفة، لم تستنكف الجدة عن الهمس والدردشة. تعرف "رنين" ضمناً أن هذه القصص كانت أساطير بحتة. يُمكن القول أنها نادرة الوجود. لكنّ الريف، وعلى وجه الخصوص من أهل المدينة أنفسهم، آمنوا بها. التواطؤ هو الخديعة. لا أحد رأى تلك المخلوقات رأي العين بأية حال. ما كانوا يملكون دليلاً قاطعاً. هذا بالزيادة أن أخبار إختفاء الأطفال كثيرة النّشر. ربّما أي إمكانية أخرى كانت صحيحة. راودها شعور أن المنزل قد اقتحم في غيابها بغير حساب.



ISBN 978-3-96524-297-4



9 783985 292974 >



Република България-Пловдив

جمهورية بلغاريا - بلوفديف

